
روايات مصرية للجيب
د. أحمد خالد توفيق
36
هواء فاسد
سافاري
Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

اسمى (علاء عبد العظيم) .. طبيب مصرى شاب يجاهد ـ كما يقول الغلاف ـ كى يبقى حيًا ويبقى طبيبًا ..

وحدة (سافارى) هى البطل الحقيقى لهذه القصص ، و(سافارى) مصطلح غربى معناه (صيد الوحوش فى أدغال أفريقيا) وهو محرف عن لفظة (سفرية) العربية ..

لاحظت أن أكثر الأصدقاء يضيفون حرف ألف بين الراء والياء لتتحول الكلمة إلى (سافاراى) .. لا أعرف فى الحقيقة سبب هذا الخطأ ، لكنه خطأ شائع شبيه بتلك الألف الشيطانية التى يكتبها الجميع بعد (واو) ليست (واو جماعة) على غرار (أرجوا الهدوء) . ولو كنت ترغب فى معرفة النطق الغربى للفظة (سافارى) فلتتخيل أنها (صفرى) بفتح الصاد والفاء ..

وحدة (سافارى) التى نتكلم عنها هنا لا تصطاد الوحوش ولكنها تصطاد المرض فى القارة السوداء ، وسط اضطرابات سياسية لا تنتهى وأهال متشككين وبيئة لا ترحم ..

الوحدة دولية لكن بطلكم الفقير المعترف بالعجز والتقصير شاب مصرى عادى جدًا ، فقط وجد كثيرًا من عوامل الطرد فى وطنه فانطلق يبحث عن فرصة فى القارة السوداء .. انطلق يبحث عن ذاته ..

هناك وجد التقدير .. وجد المغامرة .. وجد الحب .. الطبيبة الكندية الرقيقة (برنادت جونز) التى صارت زوجته .. ثم هناك الفيروسات القاتلة والقبائل المعادية والمرتزقة الذين لا يمزحون ، والعلماء المخابيل وسارقى الأعضاء ..

هناك كما قلنا من العسير أن تجمع بين شيئين : أن تظل حيًا وتظل طبيبًا .. لكنك تحاول .. فى كل يوم تحاول ..

هذه المحاولات هى ما أجمعه لكم وأقصه لكم فى شكل قصص .. وقصصى هى خليط عجيب من الطب والميتافيزيقا والرعب والعواطف والسياسة ! لا أعرف إن كان هناك مجنون آخر قد جرب أن يصب هذا الخليط فى كئوس ويقدمها لكم ، لكنى لم ألق هذا المجنون بعد إلا فى مرآتى ..

تعالوا نبدأ وسنفهم كل شىء ..

* * *

1 ـ أنــا ..

سوف يكون عليك أن تتحمـل مـا أعترف بـه ، وأن تتقبل هذه الحقيقة الغريبة بعض الشىء ..

لا أذكر ظروف مولدى بالضبط .. لكنى بالتأكيد لم أنل أية رعاية من أب وأم ، فالطريقة التى نولد بها تجعل الأمر صعبًا . فى فيلم (آنتز Antz) تقول النملة المصابة بالعصاب ـ ويؤدى صوتها (وودى ألين) ـ للطبيب النفسى :

ـ « عندما تكون الابن الأوسط فى أسرة تتكون من مليون نملة ، فأنت لا تشعر بأن أبويك يهتمان بك كثيرًا ! »

هذا ينطبق على حالتى بشدة .. فى الواقع لو فكرت فى الطريقة التى نأتى بها إلى العالم لفهمت ..

فقط أذكر تلك الرحلة بالطائرة .. أذكر كيف كنت أحتشد مع آلاف من إخوتى فى تلك الماسورة الضيقة ، مع الكثير من السباب والشجار :

ـ « ألن تكف عن دفعى ؟ »

ـ « ليس قبل أن تكف عن جذبى .. »

قائدنا يصيح :

- « يا رجال العمليات الخاصة تماسكوا ! تذكروا أن هذا هو غرض التدريب الذى خضعتم له كل هذه الفترة ! إنها ساعة الحقيقة ! »

كان الانتظار مملاً والطقس حارًا .. لكنه الليل وهو الوقت المناسب جدًا للرحلات من هذا الطراز ..

فى النهاية سمحوا لنا بالخروج .. ذلك الفراغ المريح الذى يلى عنق الزجاجة ..

شعرت بأننا نعبر ذلك الحاجز الدافئ ، ثم رحنا نسبح فى ذلك السائل الجميل الرائق .. من حين لآخر يصطدم بنا واحد من تلك الأجسام العملاقة فتؤلمنا الصدمة . وفى النهاية نجحنا فى اختراق واحد منها ..

أنا وإخوتى داخل ذلك الجسم الدافئ .. إنه مريح .. يشبه عوامة مرنة خفيفة الوزن تنقلنا حيث نشاء ، دعك من أن تهويته ممتازة ..

هكذا وقد شعرنا بالراحة بدأنا ننقسم .. أمامنا ثمانى ساعات قبل أن نغادر هذا المكان ..

* * *

يجب أن أقدم لك نفسى وعليك أن تصدقنى ..

أنا طفيل الملاريا .. بعبارة أدق أنا صورته المُعدية التى تسمى (السبوروزويت) .. طبعًا استنتج الأذكياء منكم أن الطائرة التى كانت تقلنى مع إخوتى ليلاً هى البعوضة .. واستنتجوا أن الجسم الدافئ الذى انتقلنا إليه هو جسد بشرى لدغته هذه .. داخل هذا الجسد البشرى سبحنا وسط الدم ، واتخذنا مسكننا المؤقت فى إحدى الكريات الحُمر السابحة فيه ..

أسمع البعض يردد : ما هذا ؟ والبعض يقول : هل يكتب طفيل الملاريا مذكراته ؟

لِمَ لا ؟ إننى لست كائنًا بسيطًا أبله .. أنا أكثر ذكاء من الأميبا الغبية التى تقضى وقتها وسط القاذورات فى القولون ، ولست خمولاً أبقى بلا حراك سنوات عدة مثل البلهارسيا .. أنا أهم مرض معد فى العالم ..

أنا أجلب السقم لنحو ثلاثمائة مليون شخص كل عام ، وأقتل حوالى مليونى شخص كل عام .. أى أننى أقتل إنسان كل نصف دقيقة !

لاحظ أن هذه الأرقام تقريبية ؛ لأن هناك حالات تموت وتمرض فى الأحراش حيث لا يمكن أن يحصيها أحد ..

والأجمل من كل هذا هو أننى أسترد قواى بسرعة غير عادية ، وأتعلم كيف أقاوم مناعة الجسد البشرى ، وكيف أواجه ترسانة الأسلحة التى يستعملونها ضدنا .. باختصار .. لم تعد الملاريا ذلك المرض التافه الذى يتم القضاء عليه ببضعة أقراص ..

إننى مشكلة دائمة .. مشكلة فى منظمة الصحة العالمية ، وفى كل مؤتمر لطب المناطق الحارة ، وفى كل كلية طب .. مشكلة تواجه كل مسافر لقلب أفريقيا أو جنوب شرق آسيا ..

بعد كل هذا تندهش لأننى أكتب مذكراتى بنفسى ؟

إننى لأرى حولى من هم شديدو التفاهة ولا شأن لهم على الإطلاق ، لكنهم جميعًا يكتبون مذكراتهم التى لا تعدو كلمات مثل : « الاثنين 18 نوفمبر .. تناولت الإفطار ثم تناولت الغداء ثم نمت .. لقد بدأت أشفى من الإمساك ودخلت الحمام ثلاث مرات .. (عصام) يحبنى وأنا لا أحبه ، بينما أحب (عمرو) وهو لا يحبنى .. ساعدنى يا رب ! »

كأن هذا الذى يكتبون تراث ثمين يجب أن يخلد .. وكأن الشعوب يجب أن تحتفل بدخولهم الحمام ثلاث مرات ..

ما أكتبه أنا هو ببساطة تاريخ الوجود .. عبقرية الخلق التى تمثلت فى كائن دقيق واهن لكنه قادر على أن يقهر الجيوش ..

قادر على أن يغير التاريخ .. قادر على أن يجعل العلماء يسهرون فى صيف الهند الحار يحدقون فى عدسة المجهر حتى يصيبهم الحول ، كما سنعرف حالاً عن (روس) و(مانسون) و(جراسى) وسواهم ..

ليس هذا فحسب .. لقد استخدمنى العلماء فى العلاج فى فترة من التاريخ ! لاحظوا أن مرضى زهرى الجهاز العصبى ترتفع حرارتهم ويتحسنون عندما يصابون بى .. هكذا كان العلاج بالملاريا معروفًا تاريخيًا .. نفس الشىء حدث مع الجنون .. إن المجنون يصير عاقلاً عندما يصاب بالملاريا !

بعد هذا كله تتساءل : كيف أكتب مذكراتى ؟ إن لم يكن أنا فمن ؟ وإن لم يكن الآن فمتى ؟

* * *

الآن صار علينا أن نقوم بخطوة أخرى من الخطوات التى نعرف غريزيًا أن علينا القيام بها ..

نخترق خلايا الكبد البشرى ..

هذا الكبد سليم ولا يعانى صاحبه أى شىء ... كبد نضر مغر بالاقتحام والالتهام .. هكذا نقتحمه ، وهناك داخل تلك الخلايا نبدأ طورًا آخر من حياتنا ..

إنـه الانقسـام بـلا زواج .. لا ذكر ولا أنثـى ولا شـراء أثـاث وإعدادات لحفل الزفاف .. فقط ننقسم ليصير الواحد منـا عشرات .. ربما مئات ..

الآن هو ذا (الميروزيت) يعلن عن نفسه ..

لقد غيرت اسمى لو كنتم قد لاحظتم هذا ..

لكن رحلتى لم تبدأ بعد ..

ما زال الكثير من المرح ينتظرنى ..

* * *

1ـ هو..

عندما جاءت العاشرة مساء ، فرغ د . (علاء) من كتابة رسالتيه إلى أهله فى مصر وإلى زوجته فى (الكاميرون) . .. بالنسبة للأخيرة قد وجد أن البريد الإلكترونى أكثر سهولة ، لكنه يفضل أن يرسل الخطابات العادية لأهله لأن أخاه لن يتعلم الكمبيوتر أبدًا .. لسبب ما يصر على أن البريد الإلكترونى لا ينفتح .. يصر على أن الخطاب لم يصل .. يصر على أن الخطاب وصله لكنه خال من الكتابة .. كأن الكمبيوتر الخاص به يختلف عن أى كمبيوتر فى العالم ، دعك من أنه من أولئك القوم الذين يصنعون لأنفسهم بريدًا إلكترونيًا كل أسبوع ثم ينسون كيفية فتحه وينسون كلمة السر الخاصة به .. هكذا بعد أسبوع يتخذ لنفسه عنوانًا جديدًا ..

فى النهاية قرر (علاء) أن لله عبادًا اختصهم بالقدرة على التعامل مع البريد الإلكترونى ، ولم يكن أخوه من بينهم بالتأكيد ..

هكذا عادت الخطابات القديمة المحببة بين الطرفين .. الخطابات ذات الرائحة والتى تحمل طوابع مصر ، وخط أخيه المحبب على الغلاف ..

كان يحب تلقى الخطابات باعتبارها أعظم نشوة فى التاريخ ، لكنه كان يمقت كتابة الخطابات باعتبارها أسوأ تعذيب عرفته البشرية منذ عقاب القاربين البابلى الشهير ..

لقد فرغ الليلة من كتابة الخطاب فشعر بنشوة كأنه تخلص من عبء ثقيل ، أو نزع عن قدميه حذاء ضيقًا ... دعك من أن دورة الخطاب لن تستغرق أقل من ثلاثة أسابيع ، وهذا يمنحه إجازة لا بأس بها حتى الخطاب القادم ..

كان أقرب إلى الاكتئاب والضيق .. الشعور الذى لم يفارقه منذ جاء إلى جنوب أفريقيا ، برغم أن البلاد جميلة بحق .. ربما هو ذلك الشعور بأنه وحيد .. وحيد جدًا .. ربما هو ذلك الشعور الممض بأن الدقائق تتحرك كأنها دبابات نازية فرغ وقودها .. من المؤلم أن تراقب شيئين وهما يحدثان : التنفس ومرور الزمن ..

دعك من ذلك الألم العميق فى معدته ... يبدو أنها قرحة قد قررت أن تعلن عن نفسها .. هذا يجعل الحياة أجمل .. وهكذا بدأ يتناول بعض أدوية الحمض التى تختلف أسماؤها لكنها جميعًا لها مذاق النعناع ، وتترك ذلك (الطبشور) الأبيض على شفتيك

وشاربك .. وقد اعتاد شرب هذه الأدوية إلى درجة أنه صار يحمل الزجاجة فى جيبه كسكير مدمن ، ويمكن أن يقاطع الحديث فى أية لحظة ليجرع جرعة ثم يمسح فمه بكمه كما يفعل الفاشل فى الحب فى الأفلام العربية ..

فى الحادية عشرة مساء سمع دقات على الباب ففتحه ..

كان القادم هو الطبيب الأسكتلندى (سميث ماكفادين) الذى يعتبر رئيسا مباشرًا لـ (علاء) ، لكنه كذلك صديق حميم له .. كما عرفنا هو طيب القلب ساذج كطفل .. وفى هذا العالم يحتاج المرء إلى شخص واحد ساذج .. شخص واحد فقط ..

ـ « هل نمت ؟ »

ـ « لا .. أظن هذا واضحًا .. »

ـ « تبدو لى كأنك كنت تتسلى بالتهام (الطبشور) .. »

ـ « أدوية الحموضة .. لابد من بعضها وإلا لما نمت .. »

جلس على الفراش وراح يجوب بعينيه فى الحجرة ..

ـ « هل أضايقك ؟ »

ـ « لا .. أنت تعرف أن هذا صعب .. »

احمـــر وجـــه الطبيـــب الأســـكتلندى كثـــيرًا .. يجـــب هنـــا أن نعتـــرف بـأن لهجتـــه كانـــت صـــعبة جـــدًا علـــى (علاء) وكـان يجيب عن أكثر أسئلته بالضحك أو هز الـرأس ، لأنـــه يخجـل من استعادة كل كلمة يقولها الرجل .. هذا يجعلك تشـــعر بـالخجل من غبائك ...

منذ فترة يحاول (ماكفادين) معرفة ما حدث لـ (علاء) عندما زار (الخوى خوى) .. لماذا لم يعد ذلك الطبيب البارع (فيليب) إلى الوحدة قط ، ولماذا التزمت (مادلين) الصمت .. لماذا انفـــرد المدير بها و(علاء) فى مكتبه لمدة ســـاعتين ، ثم خـــرج الاثنـــان ووجهاهما يحملان أمارات كارثـــة انتهت لكنهما يرفضان الكلام عن الأمر نهائيًا ؟

فضول قاتل تحول مع الوقت إلى غيظ قاتل ..

ما السر الخطير الذى يمكن أن يعرفه (علاء) ويعتبر باقى أفراد الوحدة أقل نضجًا من معرفته ؟ هذا نوع من الوصاية الأبوية الغريبة ..

لكن (علاء) ظل صامتًا وفشلت كل محاولات استنطاقه .. الطبيبة كذلك قالت فى غموض :

ـ « كان هناك دين ودفعته .. »

ولماذا يبدو كأنهما تلقيا علقة ساخنة ؟ لا يوجد ملليمتر واحد فى الوجهين من دون كدمة ..

لكنه هذه الليلة بالذات لم يأت لهذا الغرض .. قال لـ (علاء) :

ـ « لا أشعر بأننى على ما يرام .. »

ابتسم (علاء) ، وقال :

ـ « من منا ليس كذلك ؟ »

ـ « هل تشعر برغبة فى القىء ودوار .. وتشعر بأنك محموم ؟ »

وضع (علاء) ظهر يده على جبين (ماكفادين) ، وقال :

ـ « لا .. ليس إلى هذا الحد .. لكن من الوارد أنك مقبل على نزلة برد .. إننا مرهقون بحق .. »

فى اللحظة التالية انتفض (ماكفادين) .. تكور على نفسه وعقد ذراعيه على صدره ، وراح يرتجف فى عنف .. أسنانه تصطك ولحم خديه يترجرج .. وعويناته تتواثب على أرنبة أنفه إلى أن قررت أن تنزلق ..

قال من بين أسنانه :

ـ « هل .. هل .. هل .. ترى ؟ لست .. لست .. على ما يـ ... ما يرام ! »

ثم مد يده المرتجفة إلى البطانية فوضعها على كتفه ، وقال :

ـ « هل .. هل .. هل .. الط .. الط . الطقس .. با .. با .. بارد ؟ »

ليس الليل فى هذه البلاد هو أدفأ شىء فى العالم .. إنه بارد يتسرب للعظام ، لكن ليس إلى درجة الرجفة ، وقد ثبت (علاء) البطانية بإحكام على كتفى الطبيب ، وقال :

ـ « ليس لدرجة الرجفة .. أنت مريض فعلاً .. »

ـ « مر .. مريض .. »

وواصل الرجفة ..

* * *

2ـ أنــا ..

الآن صار بوسعنا أن نغادر الكبد لنهاجم المزيد من كريات الدم الحُمر .. لقد قضينا نحو ثلاثة أسابيع داخل الكبد قبل أن نبدأ عملية الهجوم ..

هناك من ظل نائمًا داخل خلايا الكبد .. وهذا النائم المسالم قد قام بضبط (المنبه) بجوار الفراش ليوقظه في وقت ما .. بالطبع لم نتفق على وقت الاستيقاظ هذا .. بعضنا يستيقظ فورًا وبعضنا يستيقظ بعد فترة طويلة جدًا(*) ..

هذا هو التفسير لما حير العلماء من قبل .. إنهم يعالجون المريض بكفاءة ، ويعتقدون أن القصة انتهت .. ثم يفاجئون بعودة الأعراض بالكامل بعد فترة طويلة جدًا ... السبب يا سادة هو تلك الخلايا النائمة منا والتي تنتظر لحظة الإيقاظ ، كأن المريض لم يشف .. وهكذا تبدأ القصة ثانية ..

(★) للدقة العلمية ، لا يمارس (الفالسيبارم) بطل قصتنا هذه العادة لكن لا داعي لزيادة تعقيد الأمر بهذه التفاصيل !

أسبح فى البلازما الرائقة .. أشعر بالخلايا المناعية تتحسسنى .. إنها تحاول معرفة كيف أبدو .. وعلى الفور تبدأ تصميم جسم مضاد الغرض منه تدميرى ... هذا الجسم المضاد ينطبق علىّ كأنه قالب بالجبس لى ..

الجسم المضاد الذى يشبه حرف Y يسبح فى البلازما من حولى كأنه سمكة قرش تبغى الفتك بى ..

هنا أمارس تلك المعجزة التى تتفرد بها طفيليات معدودة جدًا .. آخذ قطعًا من بروتينات الدم وأغطى بها نفسى ، كأننى أتخفى فى ثياب صنعتها من عدة خرق .. هذا هو (التنكر المناعى) .. وهكذا يتشممنى ذلك الجسم المضاد الأبله ثم يقرر أننى لست الرجل المطلوب .. هكذا يهز كتفيه ويبتعد بحثًا عن فريسته وأنفجر أنا ضحكًا ..

سوف تتكرر هذه القصة عدة مرات .. كلما عرفت الخلايا كيف أبدو من الخارج أغير شكلى .. وهكذا أتفادى أجهزة الدفاع المعقدة التى تحمى الجسم البشرى ..

لقد وجدت طريقى إلى كرة دم حمراء نضرة ..

اخترقتها واستقررت بالداخل حيث الراحة والتهوية الممتازة ..

إنها المتعة الحقيقية . يجب أن تكون طفيل ملاريا لتتنعم بهذه اللحظات .. أتغذى على محتويات الكرة وأنمو .. وأنقسم ..

بالطبع لا توجد دورات مياه هنا ؛ لذا اسمحوا لى أن أتخلص من بقايا ما آكله فى داخل الكرة ذاتها .. هذه طريقة حياة بعيدة عن اللياقة لكنى لا أملك سواها ، دعك من أن هذا سيجعل العثور علىّ سهلاً .. سوف ينظر علماؤكم تحت المجهر ليروا الكرية الحمراء وفيها تلك الصبغة المميزة التى تدلهم على أن طفيل الملاريا موجود ...

إن فترة الراحة تختلف من نوع لآخر .. أحيانًا نستريح يومين وأحيانًا ثلاثة أيام .. هذا مهم جدًا لأنه السبب فى الحمى المتقطعة التى لاحظها الأقدمون ..

الآن حان وقت الخروج ..

يقول لى (الميروزويت) الواقف بجوارى :

- « إن هذا ممتع يا زميل . »

فأهز رأسى وأبتلع ريقى ..

يقول :

- « هذه أول مرة لك ؟ »

ماذا يريد هذا المخبول ؟ بالطبع هى أول مرة لى وله .. لم نكن نحمل هذا الاسم من قبل ..

على أننى أفترض أن سبب هذه الأسئلة السخيفة هو ما يشعر به من إثارة توشك على جعل أنفاسه تتوقف ..

إننا الآن موشكون على التحرر والسباحة فى البلازما من جديد .. موشكون على الخروج ..

وهو خروج غير مسالم مثل دخولنا .. لقد صرنا كثيرين .. صرنا أقوياء .. هكذا نفجر الكرية الحمراء بما فيها ونتحرر ..

يا له من مشهد ! مشهد يذكرك بغلاف مجلة أطفال من مجلات (مارفل) أو (دى سى كوميكس) ، حيث الأبطال الجبابرة يحلقون نحوك بينما فى الخلفية ينفجر كوكب ما إلى فتات ..

سوف يتكرر هذا الانفجار كلما هاجمنا كريات أخرى ، ولسوف يحدث كل أربعة أو ثلاثة أيام ..

بما أننا ننتمى لأسرة تدعى (فالسيبارم falciparum) ؛ فإن هذا التحرر يحدث فى الشعيرات الصغيرة العميقة البعيدة عن السطح ، ولهذا حدث أكثر من مرة أن فشل العلماء فى العثور علينا فى أوعية الدم السطحية السهلة قريبة المنال ..

بالطبع ليس تدمير الكريات الحمر سهلاً ..

على الأقل ليس سهلاً بالنسبة للمريض ..

هذه هي اللحظة التي يبدأ فيها المرض بأعراضه المعروفة الكريهة ..

اللحظة التي يبدأ فيها كل شيء ..

★ ★ ★

2ـ هــو ..

أعطاه (علاء) بعض أقراص الأسـبيرين والفيتـامين (ج) ثـم حمله إلى فراشه حملاً كما يفعلون مع الأطفال ..

كـانت الردهـات خـالية وهــو لا يكـف عـن الرجفـة وأسـنانه تصطك ، حتـى أن (عـلاء) وجـد صعوبـة فـى جعلـه يقـف علـى قدميه ريثما يفتح باب غرفته بالمفتاح الذى وجده فى جيبه ..

ـ « هيا .. إلى الفراش .. لا تكن طفلاً .. »

كانت غرفته ساذجة بسيطة مثله .. حتى الصـور المعلقـة هـى للاعبى كرة قدم وهناك صورة له مـع أسـرته .. صـورة عملاقـة لـ (ميل جيبسون) فى فيلم (القلب الشجاع) باعتباره كان يـؤدى دور بطل أسكتلندى ..

ألقى به فى الفراش كما يلقى الشىء ، ونزع حذاءه ..

كان يرتجف كورقة لذا تأكد (علاء) من وضع الأغطيـة فوقـه بإحكام ، ونزع نظارته عن عينه ، وقال :

ـ « فى الصباح ستكون على ما يرام .. لا تقلق .. »

قال الطبيب أحمر الوجه فى رعب :

ـ « هل .. هل .. هل تعتقد أن الأمر خطير ؟ »

حك المصرى لحيته مفكرًا ، وقال :

ـ « أنت تعرف القائمة الكبيرة للأمراض التى تبدأ برجفة .. أعتقد أن إصابتك بالإنفلونزا احتمال وارد .. على كل حال لقد تعلمت أنه من الصعب أن تحاول تشخيص أى مرض بعد عشر دقائق من ظهوره .. أقترح أن تنام .. »

ـ « سـ .. سأحاول .. ول .. ول . »

من العسير كذلك أن تطلب عونا بينما الرجفة لم تبدأ إلا منذ وقت وجيز .. ربما كان الأمر طارئًا ..

هكذا ترك له النور مضاء وتمنى له ليلة سعيدة ثم فارق الغرفة ..

وفى غرفته تناول علاج المعدة وشرب بعض اللبن .. لقد صار اللبن متغلغلاً فى حياته بشدة منذ هاجمته آلام المعدة تلك ...

راح يتأمل السقف مفكرًا .. هل هى الملاريا ؟ مستحيل .. إن كل أفراد وحدة (سافارى) يتعاطون الأدوية الواقية منها بشكل منتظم .. عندما تحدث الملاريا هنا فإنها لا تمزح لأنها من النوع المدعو (falciparum) وهو نوع لعين .. يطلقون عليها (الملاريا الخبيثة) .. أضف لهذا أنها تقاوم العلاج بشكل شرس ..

لهذا لم يكن أى واحد من أفراد (سفارى) على استعداد لتجربة حظه .. إن ابتلاع بعض الأقراص بشكل منتظم قد ينقذ حياتك ..

* * *

فى الصباح كان أول ما فعله (علاء) هو أن زار مريض البارحة ، الذى لم يعد قادرًا على أداء عمله ..

كان راقدًا فى الفراش منهكًا شاحب الوجه وقد غمر العرق وجهه وحول رأسه ارتسمت بقعة بلل عملاقة على الوسادة .. لم تكن ليلته مرحة جدًا كما هو واضح .. ارتفاع حرارة وعرق ، فلابد أن الهلاوس لم تفارقه لحظة ولابد أنه رأى جميع أنواع الكوابيس بدءًا بالوطاويط مصاصة الدماء وانتهاء بعودة زوج خالته من القبر .. الأسوأ أن يكون زوج خالته حيًا أصلاً ..

جرع (علاء) جرعة من دواء المعدة وسأله على سبيل تحصيل الحاصل :

ـ « هل من تحسُن ؟ »

قال الأسكتلندى المنهك :

ـ « لا .. لقد عاودتنى الرجفة ست أو سبع مرات .. كانت الغرفة تهتز بالكامل .. وخزانة الثياب تصر . »

هذه كانت من الأساليب المحبَبة لتشخيص الملاريا في الماضي .. عندما تهتز أنت فقط فهي حالة إنفلونزا .. عندما تهتز أنت والفراش فهذه حالة صدمة عصبية أو التهاب بالحالب .. عندما تهتز الغرفة كلها فنحن نتكلم عن الملاريا ..

- « هل من أعراض جديدة ؟ »

- « لا .. كل شيء غامض كما هو .»

- « أفترض أنك لم تتوقف عن تعاطى الوقاية من الملاريا ؟ »

- « من المخبول الذى يجرؤ على التوقف ؟ »

تذكر (علاء) زوجته الحسناء (برنادت) التى أصيبت ذات مرة بلعنة جعلتها ترتجف بلا انقطاع .. تلك اللعنة الأفريقية التى اتضح أنها لم تكن كذلك .. (كليمنجارو) .. التسلق .. الظاهرة .. ياه ! هل مر على هذه الأحداث قرن أم قرنان ؟ لا تقل لى من فضلك أن ثلاثة أعوام لا أكثر قد مرت ..

على كل حال قد اتخذ (علاء) قراره . لابد من رأى ثالث .. ولم يكن بالطبع معتوهًا .. يمكنه قطعًا علاج مريض يعانى الرجفة ..

لكنها تلك العقدة التى تصيب الأطباء عندما يتعاملون مع زميل أو قريب .. ذلك الإحساس العالى بالمسئولية والرغبة فى حكمة الرأى الآخر ..

هكذا اتصل (علاء) بمدير الوحدة ، وبعد قليل جاء إلى الغرفة د . (توماس أبلتون) ، وهو طبيب بريطانى مختص بطب المناطق الحارة .. رجل فى الأربعين من عمره ، له عينان رماديتان مذعورتان ولحية شقراء جميلة ورأس أصلع أكثر جمالاً ، وقد فحص الطبيب المريض بسرعة ، وتحسس عنقه ومر يده على أعلى فخذيه وأنصت إلى صوت تنفسه ، ثم قال :

ـ « طبعًا لابد من إجراء بعض الفحوص .. قد تكون هذه ملاريا وقد لا تكون .. لكن الالتهاب الرئوى والتهاب الحالب يحدثان ذات الصورة .. »

قال (علاء) فى تفلسف :

ـ « والإنفلونزا نفسها .. »

ـ « والإنفلونزا نفسها .. قد يكون مصابًا بأى شىء أو لا شىء ... »

ثم نظر إلى الأسكتلندى المريض ، وقال له :

- « سوف تبيت فى غرفة خاصة بك يا (سميث) . ليس من المناسب أن تمضى الليل فى غرفتك وحيدًا .. »

هز (ماكفادين) رأسه وكان منهكًا بحيث عجز عن الاعتراض أو قول شيء .

الآن انتقل (ماكفادين) بسهولة تامة من خانة الطبيب إلى خانة المريض .. المريض الذى يرقد فى فراش وتأتى ممرضة لتأخذ عينات بالمحقن من ذراعه ..

قال (أبلتون) :

- « أعتقد أنها هى الملاريا .. »

قال (علاء) فى دهشة :

- « إنه يتعاطى الأدوية الواقية .. »

- « ربما لم يفعل أو حدث خطأ ما .. على كل حال سوف نعرف أكثر من فحص الدم .. »

- « وماذا عن الأطوار الثلاثية الشهيرة .. البرد .. الحر .. العرق ؟ لا أعتقد أنه مر بها بانتظام .. »

ـ « هـذه الأعراض تتشـابه مع أمراض أخرى عديدة .. دعك من أنها قد تكون غائبة .. لقد تعلمنا أنه لا يمكـن تـرك المريض يموت لأن هذه العلامات الثلاثية لم تظهر عليه .. »

وهكذا ترك (علاء) مريضه وصديقه وقرر أن يمر عليـه ليلاً ليعرف ما حدث ..

* * *

3ـ أنــا ..

ملاريا .. لفظة لاتينية قديمة معناها (الهواء الفاسد) ..

هذه التسمية التى اقترنت باسمى كان سببها الاعتقاد القديم أن الهواء الفاسد هو الذى ينقل هذا المـرض ، ولهذا كـان اسمى أيضًـا (حمى المستنقعات) .. فى العربية يفضلون تسميتى بداء (البرداء) ..

لقد خاض العالم حربًا علميـة بـالمعنى الحرفـى للكلمـة إلـى أن عرف من أنا حقًا .. سوف أحكى القصة كاملـة بعد قليل ، لكنـى منهمك فى هذه اللحظة فأرجو أن تسامحونى على ذلك ..

نحن الآن نعيش داخل الكريات الحُمْر ، ونتكاثر .. وننفجر مـن حين لآخر لنبدأ دورة جديدة ..

بعضنا يزداد نضجًا ويمكن القول إنه فى فترة المراهقة بلغتكم .. إنــه البلـوغ .. لقـد بـدأ هـؤلاء يتحولـون إلـى أشـكال تدعــى (الجاميتات) ..

هنـاك جاميتـات وسيمة مفتولة العضـلات هى التى تلعب دور الذكور ، وهناك جاميتات حسناء رشيقة تلعب دور الإناث .. لابـد أن هناك الكثير من (الفيديو كليب) كذلك ..

لكن لحظة الزواج لم تأت بعد ..

لا يمكن عقد حفل الزفاف إلا فى جوف بعوضة !

مكان غريب وغير رومانسى بالمرة لحبيبين يلتقيان للمرة الأولى ، لكنك تنسى أن الشاعرية تعنى عند الملاريا أشياء أخرى غير ما تعنيه عندكم .. اختلاف ثقافات .. اللون الأبيض يرمز للموت عند اليابانيين ، واللون الأحمر لون الفرحة عند الصينيين ، فلماذا لا يكون جوف البعوضة مكانًا رومانسيا بالنسبة للملاريا ؟

فى جوف البعوضة الأحمر الرومانسى الأنيق عطر الرائحة بالنسبة لنا ينضج الجميع .. يصير الصبيان شبابًا وتصير البنات فتيات ..

يتم التزاوج الأسطورى الذى يحمل سر الخليقة .. إنه ذات السر المقدس الذى منحه الله إلى الإنسان والأفيال والثعالب والفقمة والذباب وطفيل الملاريا ..

يخترق الجنين أمعاء البعوضة ليستقر فى التجويف خارجها ..

سوف ينمو الجنين ويصنع آلافًا من تلك الخلايا المعدية التى تهاجر لفم البعوضة ..

هناك تنتظر في نهم اللحظـة التـي تثقب فيها البعوضـة جلـد إنسان آخر ..

ليكن من يكون ..

ليكن فلاحًا أفريقيًا يمشي وقت الغروب بحثًا عن ماشيته ..

ليكن مستكشفًا بريطانيًا يدخن الغليون ، ولا يعرف ما ينتظره من هول في هذه الأصقاع ..

ليكن طفلاً نائمًا بلل العرق جبينه واختلط بخصلات شعره ..

ليكن امرأة .. ليكن صيادًا من (تايلاند) أو شاعرًا من اليابان ..

ليكن طبيبًا في وحدة (سافاري) ..

ليكن أي شيء ..

لقد مر أسبوعان تقريبًا ..

والطفيل الذي دخل جسم الإنسان بريئًا لا يفقه شيئًا ، قد صـار كائنًا شيطانيًا يعرف ما يجب عمله ..

ثمة إنسان آخر سوف يصاب بالملاريا هذه الليلة ..

هذه هي الدائرة الجهنمية .. الإنسان يعدي البعوضة والبعوضة تعدي الإنسان ..

هكذا للأبد ..

* * *

إنه القرن التاسع عشر ..

لقد تلقت الطفيليات الأخرى التي تنقلها الحشرات عدة ضربات قاصمة .. للمرة الأولى عرف الإنسان أن الحشرات تنقل أمراضًا .. هو ذا (تيوبولد سميث) الأمريكي يكتشف ذلك ويعرف أن القراد ينقل حمى (تكساس) التي تبيد الماشية .. وها هو ذا (بروس) في هذه الأرض بالذات ـ الناتال ـ يكتشف سر مرض النوم ، ويعرف أن ذبابة الـ (تسي تسي) هي التي تسبب هذا كله ..

ظللت أنا لغزًا .. لم يكف الناس عن اعتقادهم أن الملاريا تنتقل بالهواء الفاسد ..

هل تعتقد أنني مرض هين ؟ في ذلك الوقت كان هناك خبر في الصحف عن اجتياحي لجزر بين اليابان وفرموزا .. لم يولد أي طفل في تلك القرى لمدة ثلاثين عامًا ! في إحدى القرى لم يبق إلا امرأة عجوز واحدة حية !

هل تحسبنى مدللاً ؟ إذن اقرأ ما فعلته بالجنود الأمريكيين فى الملايو .. يمكنك القول بلا تردد إننى أقوى من الجيشين الأمريكى والبريطانى معًا ..

لكن افتضاح سرى كان مقدرًا على يد اثنين من أغرب العلماء الذين يمكن لك أن تتخيلهم .. الأول بريطانى يدعى (روس Ross) والآخر إيطالى يحب الضباب يدعى (جراسى Grassi) . . .

الطبيب الأول (روس) تاريخ طويل للفشل .. هذا الرجل يمكن أن يكون أى شىء سوى عالم .. لقد درس الطب لكن خياله كان مثقلاً بالموسيقا والشعر برغم أنه لم يكن يملك أية موهبة فيهما .. يقولون إنه كتب ألعن ألحان وأسوأ أشعار فى تاريخ الأدب والموسيقا ..

وجد عملاً كطبيب فى البحرية ، وقد رحب بهذا ليفر من أبيه الطاغية .. وانتهى به المطاف فى جو الهند الحار الرطب يخدم العلم البريطانى ..

ما أغرب هذا الرجل الذى قدر له أن يقضى علىّ ! لقد كان الهواء فى الهند مستنقعًا للميكروبات .. كان الماء حساء ميكروبات .. هناك بكتريا قاتلة تحت كل حجر وفى كل منحنى .. لو أنك دخلت فراشك ليلاً لوجدت وباء ينتظرك .. لكن (روس)

لم يلحظ فى هذا أى شىء يثير اهتمامه .. كان من الطراز الذى يصحو من النوم شاعرًا ثم يتحول إلى عالم رياضيات عند الظهر ، وفى المساء يتحول إلى مكتشف ، ثم يقرر أن يكون بطل العالم فى لعبة الجولف ، وفى النهاية ينام مرهقًا غارقًا فى العرق ..

ثم قرر فجأة وبلا سبب أن يدرس الملاريا ، وبدأ يفحص دماء الهنود حتى كان الناس يفرون منه ويطلقون عليه (البريطانى المجنون) .. وكانت خلاصة أبحاثه هى أن الملاريا ليست مرضًا معديًا بل هى نتيجة للاضطرابات المعوية !

فى سن السادسة والثلاثين كتب فى مذكراته : « كل شىء جربته أو وضعت أنفى فيه فشل فشلاً ذريعًا ! »

عاد إلى لندن محبطًا ليلقى سير (باتريك مانسون) . . . الرجل الثانى المهم فى قصة كشف اللغز ..

كان (مانسون) طبيبًا بريطانيًا اكتشف بعض الأشياء المهمة عن داء الفيل .. إنه أول من لاحظ أن البعوض ينقل هذا المرض من إنسان لآخر .. وقد سبب هذا الكشف له نوعًا من الهوس والخبال .. لم يعد يتكلم إلا عن البعوض .. كل شىء ينسبه للبعوض ..

التقى الرجلان .. مجنون البعوض والطبيب الشاعر ..

(روس) الذى سيقضى بقية حياته مــع البعوض ، كـان يتكلـم عن (النلموس) و(البعوض) باعتبارهما شيئين مختلفين ، بينما (مانسون) كان يؤمن أن البعوض يمتص الدم مـرة واحدة فقط فى حياته ..

لكن (مانسون) كـان قد لاحظ عدة أشياء فى دم المصابين بالملاريا .. وقد عرض شرائح مجهرية علـى (روس) تظهرنـى وأنا أحتل الخلايا الحمر ، أو لحظة انفجارها ..

ـ « هذه الأهلة الصغيرة التى تراها تحت المجهر هـى طفيل الملاريا .. السؤال المهم هنا هـو : كيـف ينتقل هذا الطفيل من إنسان لآخر ؟ »

وبما أن (مانسون) كان مصابًا بوسواس البعوض ، فقـد كـان يؤمن أن البعوض هو الذى ينقل هذا المـرض .. لقد عرفنـا بعد ذلك أن هذا صحيح لكن كيـف ينقل البعوض المرض؟ وكيـف تبرهن عنه ؟

تحمس (روس) للأمر ، فقد كان غارقًا فـى الأحلام الرومانسية .. سوف يتخلص العـالم مـن هـذا الـداء ، وسـوف يكـون هـــو ـ (روس) ـ المنقذ ..

ـ « سأعود للهند يا سيدى فدعنى أتول هذه المهمة ! »

لم يكن يفرق بين الناموس والبعوض ، بينما (ماتسون) كان يؤمن أن البعوضة لا تأكل إلا مرة واحدة فى حياتها وتموت بعدها .. وقد حاول (روس) أن يبحث فى المكتبات عن معلومات تتعلق بالبعوض لكنه كان عاجزًا عن البحث فى المراجع ..

هكذا انطلق إلى الهند من جديد وقد عزم على أن يكون الرجل الذى يخلص العالم منى ..

* * *

فى الهند اعتبروه مخبولاً ..

كان يجمع الهنود التعساء المصابين بالملاريا ويضعهم تحت ناموسيات ، ويقضى الوقت فى أخذ الدم منهم ..

صار خبيرًا فى فحص الدم والعثور على العلامات التى تدل على أنى هناك .. وكان يهيم حبًا بكل مريض يمتلئ دمه بى ، ويكره كل من بدأ فى التحسن ..

علّم البعوض كيف يمتص دماء المرضى ، ثم وضع البعوض فى الماء وجعل الأصحاء يشربون هذا الحساء الفظيع ! كانت هذه نصيحة (مانسون) الذى آمن بأن الملاريا تنتقل عن طريق شرب الماء الذى غرق فيه البعوض ..

شرب (عبد الوهاب) الهندى البائس لترات من هذا الحساء ، لكنه لم يمرض .. فقط ارتفعت حرارته مرة واحدة لكنها لم تكن الملاريا للأسف ..

انتقل (روس) إلى فرم البعوض وإطعامه للأصحاء ... لكن لم يمرض أحد ..

كانت أبحاث (روس) أبعد ما يكون عن المنطق .. لم تكن لديه أية طريقة علمية .. كان مجرد شاعر محموم يحاول عمل كل شىء فى ذات الوقت ..

وكان يجلس فى الليل الهندى الرطب ينظر إلى الميكروسكوب الذى جعله العرق يصدأ .. لم يستعمل المروحة لأنها تطرد البعوض ..

وعلى الورق الذى تجعد من العرق راح يكتب شعره الردىء :

ما الذى يسقم العزلة ؟

أتراه يوم الدينونة ؟

السماء حمراء كالدم ..

والصخور تتحلل فى ذاتها ..

فى ليلة التاسع عشر من أغسطس راح يشرح بعوضة تحت المجهر .. لم يكن يعرف شيئًا عن البعوض ؛ لذا أطلق على هذه البعوضة المصطلح العلمى المعقد (بعوضة بنية صغيرة) .. هذه البعوضة كانت قد لدغت مريضًا يدعى (حسين خان) .. راح يفحص أعضاءها .. وفجأة تصلب الشعر فى مؤخرة عنقه ..

وسط الخلايا التى تبطن جدار المعدة كانت هذه الكرة غريبة الشكل .. إنها ليست وهمًا .. إنها موجودة بالفعل !

هذه الخلايا تحمل الصبغة السوداء المميزة للملاريا .. هذا واضح ..

إنها الملاريا بلا شك !

لقد انتقلت من المريض (حسين خان) إلى البعوضة عن طريق اللدغة، وقد استقرت في أمعائها .. إنها هي ! لابد من .. لابد من .. لابد من كتابة شعر الآن :

لقد كشفت النقاب عن أفعالك

أيها الموت قاتل الملايين !

أين راحت لدغتك أيها الموت ؟

أين راح قبرك وأين نصرك المكين ؟

لم تكن هذه طريقة بحث علمي .. فمن الممكن أن يكون هذا البعوض قد امتص دماء حيوان آخر قبل أن يلدغ (حسين خان)، لكن بالنسبة لـ (روس) لم يكن النقاش المنطقي ممكناً ..

لقد كتب لـ (مانسون) يقول :

ـ « رأيتني متحوصلاً في معدة ثلاث أو أربع بعوضات ... وجدت نفسي في حجم صغير .. لكني نموت من حوالي سبعة أجزاء من ألف جزء من البوصة إلى سبعة أجزاء من مائة جزء من البوصة خلال 48 ساعة من اللدغة ! »

هذا المخبول الذى ذوب الحر عقله يتكلم بصيغة الضمير الأول عن طفيل الملاريا ! عنى ! لقد انكمش وانكمش حتى صار فى حجمى وصار يفكر مثلى !

واصل تجاربه على مدى علم . واستطاع أن يرى كيف تخرج تلك الأجسام الصغيرة المغزلية لتملأ جسد البعوضة وتتجه إلى الفم ..

ـ « لا أساس للاعتقاد بأن البعوض الميت ينقل العدوى عبر مياه الشرب ... »

كتب له (مانسون) يهنئه على الاكتشاف . لكنه يخبره أن الموضوع فى البداية فقط ، وعليه أن يبقى فى الهند أكثر حتى يعرف كل شىء عن هذا الطفيل .. حتى (كوخ) العظيم أجرى تجارب فى إيطاليا على الملاريا ولم يصل لشىء .. لماذا لا تتكرر التجارب ؟ لماذا يرفض بعض البعوض لدغ المرضى ويقبل البعض ؟ لماذا لا تنمو هذه الكريات فى معدة كل أنواع البعوض ؟

لكن (روس) كان قد انتهى ..

ككل هذه الشخصيات (الاكتئابية الانبساطية) كان حماسه قد نفد ولم يعد يتحمل البقاء فى الهند الكريهة يومًا واحدًا بعد ذلك ..

لقد بلغ نهاية الحبل الخاص به ..

كان يحلم بالتكريم .. بالصفحات الأولى من الجرائد .. بالمآدب .. بالحسناوات .. والحقيقة أنه نال على الأقل جزءًا من شرف الكشف عن .. النصف .. وقد حصل على جائزة نوبل التى استحقها برغم كل شىء .. لكنه لم ينل الشرف كله ..

لقد ترك الشعلة لإيطالى مجنون متحمس هو (جراسى) . ..

* * *

3ـ هـو..

لم يكن شىء قد تغير .. فقط جاء عدد لا بأس من الأطباء لزيارة (ماكفادين) ..

تناثرت صور أشعة الصدر وتقارير تحليل البـول فى الأيدى .. لكن كان جليًا أنه لا مشكلة هنالك ...

وعلى الفراش الذى رسموا عليه خارطـة الحرارة ، كـان بوسعك أن ترى أن الارتفاع والانخفاض أقرب إلى تخطيط لتيار كهربى متردد .. إن حرارته تكون 39 درجة مئوية عدة مرات فى اليـوم .. وكثيرًا ما تصير عادية ..

هذه هى الحمى القلقة (hectic fever) المعروفة طبيًا ..

بالطبع كان (ماكفادين) منهكًا محمر العينين غارقًا فى العرق .. فلا أحد يجرؤ على إعطائه مخفضات حرارة قبل متابعة الحمى جيدًا .. هذه المخفضات تريح المريض لكنها تتعب الأطباء أكثر ... لهذا بدا منظره كشخص كان يخوض سباق (ماراثون) أو كأنه يتلقى الصفعات بشكل منتظم ..

نظر طبيب أفريقى إلى الخارطة ، ثم قال :

ـ « حمى قلقة ... هناك صديد فى مكان ما من جسده .. صورة الدم توحى بهذا على كل حال .. »

قال (أبلتون) :

ـ « أو ربما هى الملاريا .. أحيانًا تتصرف بهذا الشكل .. »

ـ « لمه خال تمامًا منها .. لكن يمكن إجراء لختبار مصلى .. »

على كل حال صارت السياسة واضحة .. لابد من رؤية كل شىء .. الرؤية صارت أسهل اليوم فى وجود الأشعة الصوتية والأشعة المقطعية .. هذا شىء لم يحظ به كل هؤلاء العلماء السابقين الذين كانوا يتعاملون مع صندوق مغلق بالمعنى الحرفى للكلمة .. صندوق مغلق به كرات لا تعرف عددها ولا لونها ، وعليك أن تحدد عدد الكرات ولونها معتمدًا على صوت الدحرجة الذى يميز الكرة الحمراء عن الزرقاء عن الصفراء !

كان (علاء) هناك وقد شعر بأن كل شىء يذكره بما حدث لزوجته من قبل ..

هكذا نقلوا الطبيب الأسكتلندى الذى صار عاجزًا عن المشى إلى قسم الأشعة ..

وقف (علاء) جوار (أبلتون) وطبيب الأشعة الصوتية وهو طبيب ألماني بدين مرح ، وراح يراقب الشاشة حيث تولد تلك الأشكال الشبيهة بصور الرادار ..

الكبد .. لا مشاكل .. الكليتان .. لا مشاكل .. البنكرياس ..

ثم عاد الطبيب الألماني يضع قطب الجهاز على كبد الأسكتلندي ..

هنا رأى (علاء) ذلك التجويف الصغير غير منتظم الشكل .. لقد فاتهم أول مرة ..

همس في أذن الرجل وهو يشير على الشاشة :

ـ « ما هذا ؟ »

قال الطبيب في عصبية :

ـ « لا تلمس الشاشة ! لا شيء يضايقني أكثر من التعامل مع شاشة تعج بالبصمات .. هذا خرّاج صغير .. »

ثم ضاقت عيناه ونظر لـ (علاء) ، وهمس بدوره :

ـ « خُراج كبدي صغير الحجم لكنه يفسر كل شيء .. »

هنا برغم الهمس صاح (ماكفادين) في هستيريا :

ـ « خراج كبدي ! أنا أصبت بخراج كبدي ! »

قال الطبيب الألماني بلهجة من يهدئ من روع طفل :

ـ « على الأقل وجدنا شيئًا .. »

وقال (أبلتون) :

ـ « هذا لا يفسر كل شيء .. لقد كان سليمًا تمامًا .. ألا توجد أعراض منذرة ؟ هل حدث هذا فجأة ؟ »

قال (ماكفادين) وهو يرتجف وينظر إلى السقف :

ـ « كنت أشعر ألمًا في هذا الموضع منذ فترة .. أحيانًا كانت حرارتي ترتفع أو كنت أعتقد هذا ، ولكني كنت أعتبر هذه أعراضًا أتفه من أن تذكر .. فجأة انهار السد ليلة أول من أمس .. »

قال (أبلتون) وهو يحك رأسه :

ـ « كالعادة تتكرر القاعدة .. لا يوجد شيء أكيد أو ثابت في الطبيعة .. لكن الطريقة العلمية صحيحة على الأقل .. نحن لم نتأخر .. ها قد وجدنا ما كنا نبحث عنه ولما تمر أربع وعشرون ساعة .. »

ثم حك رأسه ، وقال :

ـ « سوف يكون علينا إجراء اختبار مصلي للتأكد من كونه أميبيًا أم باكتيريًا .. »

سأله (علاء) فی حماس :

ـ « ألن نسحب منه عینة بالمحقن لنحلل محتواه ؟ »

صاح (ماكفادین) فی رعب كأنه طفل :

ـ « لا أحد ! لا أحد یضع إبرة فی كبدی !! »

قال (أیلتون) لـ (علاء) باسمًا :

ـ « الأطباء أسوأ المرضی طرًا .. هذا معروف .. سوف نؤجل هذه الخطوة بعض الوقت إلی أن نفشل فی التشخیص بسبل أخری .. والآن قاوم هذه الشهوة التی تسری فی عروقك یا صدیقی الشاب .. شهوة غرس الإبرة فی أی شیء .. كل الأطباء الشبان یعانون هذا المرض .. سوف نؤجل هذا الحقل بعض الوقت ! هیه ! هل تسمعنی ؟ »

لكن (علاء) لم یكن مصغیًا ، وللحظة بدا كأنه فی عالم آخر ثم ثاب إلی رشده .. قال وهو یهز رأسه :

ـ « نعم .. نعم .. لا حقن یا سیدی . »

بدت علی ملامح (ماكفادین) أمارات الراحة ، لكنه ظل قلقًا برغم كل شیء ..

* * *

هكذا انتهت قضية (ماكفادين) ..

لم تكن هى الملاريا .. ومن الواضح أنه سوف يتحسن .. ومن الواضح أن الإبرة لن تغرس فى كبده ..

لقد بدأت الحمى تزول .. زالت الرجفة ..

وبدأ ذلك الخراج فى كبده ينكمش ..

إن الأمور تتحسن ..

لكن (علاء) لم يزره مرة أخرى ، وقد سأله أحد الأطباء عن حال (ماكفادين) فتساءل (علاء) :

ـ « (ماكفادين) من ؟ »

صاح الطبيب فى غيظ :

ـ « رئيسك ! »

هنا هتف (علاء) وهو يضرب جبهته :

ـ « نعم .. نعم .. يقال إنه يتحسن باستمرار . »

ثم انطلق (علاء) إلى الكافتيريا .. كان هذا وقت الغداء وكان الزحام شديدًا .. كائن عملاق له ألف ذراع ووجه وصوت يطلب دوره فى الطعام .. عرق .. صخب .. حر ..

توقف (علاء) وجفف عرقه وراح يراقب طبيبًا غربيًا قصير القامة يقف أمامه فى الصف ، يضع كرات اللحم فى طبقه .. إنه يضيف المزيد من الكرات .. يضيف .. ثم يتوقف .. يفرغ الطبق من جديد ويتجه لاختيار بعض شرائح السمك .. هكذا أوشك الطابور على التحرك .. لكن الطبيب قصير القامة تراجع للخلف وقرر من جديد أن كرات اللحم أنسب له ..

قال (علاء) فى صوت خفيض :

ـ « هيه .. هل أنت أسترالى ؟ »

نظر له الطبيب فى حيرة ، وقال :

ـ « لا .. أنا نيوزيلندى . »

ـ « توقعت هذا .. لم أر فى حياتى بغلاً أستراليًا أغبى منك ! »

وقبل أن يرد الطبيب صاح (علاء) :

ـ « فليجلب كل وسادته .. إن هذا الأخ ينوى أن يقض

فى الاختيار بين السمك وكرات اللحم .. »

قال طبيب ثالث يقف خلفهما :

ـ « اهدأ قليلاً .. لا مشكلة .. دعه يحزم أمره .. »

لكن (علاء) كان بالغ العصبية .. احمـر وجهـه وسـال عرقـه وتساقط اللعاب من فمه ، حتى أن الطبيب قصير القامة آثر ابتلاع الإهانة بدلاً من مجابهة هذا المجنون ..

فقط قال وهو يبتعد مسرعًا ، وبصوت خفيض :

ـ « حيوان فظ ! »

وقف (علاء) يحملق فى إناء كرات اللحم ، ثم نقل لنفسـه كمية وافرة منها فى الطبق حتى أن عدة أطباء راحوا ينظرون لـه فـى دهشة .. فقال بالعربية وهو يلوح بكف مفتوحة فى وجوههم :

ـ « تبًا لعيونكم الحسود ! »

الحقيقة أنهم لم يكونـوا يعرفونه جيدًا ؛ لأنه لا يأكل اللحم هنـا أبدًا لأسـباب دينيـة .. كـان يحصـل علـى حاجتـه مـن اللحـوم فـى [illegible] يملكها باكستانيون [illegible] بالأسماك .. وهذا الذى قام به يعنى أنه شارد الذهن ..

يعنى أنه ليس على ما يرام ..

* * *

4ـ أنــا ..

يخرج (روس) ..

يدخل (جراسى) ..

(جيوفانى باتستا جراسى Grassi) ..

اسم إيطالى جدا .. أليس كذلك ؟ إنـه كذلك بـالفعل .. وهو طبيب حقًا لكن اهتمامه الأكبر كان فى علم الحيوان .. هـذا الرجل عالم حقيقى لكنه لن ينال جائزة (نوبل) كما حدث مع (روس) ، ولسوف لا يذكر الناس إلا اسم (روس) كلما ذكرت كلمة ملاريا برغم أنه لعب الدور الأهم ..

لقد درس النمل الأبيض .. وصار أستاذًا فى علم الحيوان وهو فى التاسعة والعشرين ، مما يدلك على أنه كان قادرًا على البحث العلمى حقًا ، وهو بهذا يختلف عن الفاشـل العظيم (روس) .. كـان يعشق العمل وقد قسم البشر إلى ثلاثة أنواع :

ـ « البشر ينقسمون إلى من يعملون .. ومن يتظاهرون بـأنهم يعملون .. والذين لا يفعلون هذا ولا ذاك !! »

كنت أنا فى ذلك الوقت أسيطر على إيطاليا بالكامل .. حتى (موسولينى) لم يضع إيطاليا فى قبضته بهذه الطريقة ..

فى هذا الوقت وصل القيصر العظيم (كوخ) إلى إيطاليا ليدرس الملاريا .. كان هذا كفيلاً بأن تشتعل حماسة (جراسى) الوطنية .. إنه لن يترك هذا الألمانى يشفى أهل وطنه ، وهم يعرفون أن (كوخ) لا يدس أنفه فى وباء ما إلا وقضى عليه .. كان (كوخ) بحاجة إلى نصر صغير بعد طلاقه من زوجته ، وبعد فشل لقاح للدرن ابتكره ؛ لذا راح يجوب العالم بحثًا عن أوبئة يكافحها ..

فى هذا الوقت أيضًا بدأ الناس يسمعون عن تجارب (ليوبولد سميث) وسرت إشاعة أنه ربما كان البعوض هو المسئول عن نقل الملاريا .. الناس قالوا هذا لكن العلماء قالوا :

ـ « هراء ! الملاريا تنتقل عن طريق الهواء الفاسد .. هذه حقيقة معروفة .. لا يمكن للعلم أن يتقدم معتمدًا على خرافات العامة هذه ! »

لكن (جراسى) كان مستعدًا للإصغاء .. (ليوبولد سميث) فعلها وفعلها (بروس) من قبل .. مهما كانت مفاهيم العامة مختلطة فإن الحكمة الشعبية لا تخطئ غالبًا ..

قابل (جراسى) العالم الألمانى العظيم فى حفل عام ، فقال له :

ـ « إن نظريتى بسيطة .. حيث توجد ملاريا يوجد بعوض »

أشعل (كوخ) غليونه ونظر له من خلال الدخان ، وقال بلكنته الألمانية الثقيلة :

ـ « ماذا فى ذلك ؟ »

ـ « المشكلة هى أنه حيث يوجد بعوض لا يجب أن تكون هناك ملاريا .. »

ـ « إذن ؟ »

ـ « هذه معضلة منطقية .. إما أن البعوض لا علاقة له بالملاريا ، وإما أن نوعًا واحدًا فقط من البعوض هو الذى ينقل الملاريا ! »

ـ « همف ف ف .. »

هكذا انطلق (جراسى) حاملاً أنابيب اختباره يجوب مستنقعات إيطاليا كلها .. الأماكن التى لا يمكن أن يجتازها إلا مخبول ..

والورقة التى كان يلعب بها هى أنه خبير فى البعوض .. لم يكن مثل (روسى) عاجزًا عن تمييز البعوض ، أو يعتقد أن البعوض حشرة أخرى غير الناموس ..

يسمع صوت البعوضة فيبحث عنها .. يضع فوقها أنبوب الاختبار ويسده بإصبعه ثم يثبت السدادة .. كنت تراه داخل الأديرة يفحص الجدران .. تراه حول أسرّة الأطفال .. تراه في دورات المياه .. تراه في غرف نوم القرويين .. كم من عاشق اختلى بحبيبته في ضوء القمر قبل أن يشعر بصفعة على قفاه .. يلتفت ليجد (جراسي) يمسك ببعوضة في حماس، ويضعها في أنبوب الاختبار ويرحل من دون تفسير أو اعتذار !

فقط عندما كان يدرك أنه لا توجد ملاريا في المنطقة كان يطلق سراح البعوضة، ويقول لها :

ـ « أنت بريئة ! هيا .. طيري ! »

كان يدخل بيوت الفلاحين ليبحث وراء الأيقونات .. يبحث في الكرار .. يفتش في الأحذية .. يبحث عن البعوض في كل صوب ..

حيثما وجدت الملاريا كان يجد تلك البعوضة التي يسميها الفلاحون (زانزاروني) .. وفي نفس المكان كانت التوابيت السود تخرج متجهة إلى المقبرة ..

طبعًا أنت تعرف الآن شكل هذه (الزانزاروني) .. يمكن لأي طالب ثانوي أن يجدها في كتاب الأحياء الخاص به، وقد كتب

تحت الصورة الاسم الجديد .. (أنوفيليس) Anopheles .. رشيقة جميلة كأنها طائرة (كونكورد) .. ترتفع مؤخرتها فى الفضاء حينما تقف ، وهى علامة مهمة تميزها عن باقى أنواع البعوض ..

من المضحك أن ترى الفارق بين ذكر بعوضة (الأنوفيليس) وأنثاه .. الذكر يعيش على رحيق الأزهار بينما الأنثى تعيش على الدم ! هذا سيروق للكثيرين من أعداء المرأة ، أو الذين يرون أن القصة ذاتها تتكرر مع البشر !

عندما عاد (جراسى) لداره أحكم غلق الحجرة وحرر كل البعوض الذى حصل عليه ثم نام فى الفراش عارى الجذع ..

لكن لم يخطر له أن البعوض سوف يتسلل إلى غرفة أمه ليلدغها ..

- « للأسف لم يسبب لها هذا أى مرض ! »

هكذا كتب فى مذكراته ..

بعد أشهر من التجارب على متطوع يدعى (سولا) ، وصلته مجموعة من بعوض (زانزارونى) جعلها تلدغ الرجل .. بعد عشرة أيام دخل الرجل فى حمى مصحوبة برعشة ..

هذا مهم ! هذا رائع !

أطلق سراح (الزانزاروني) في غرف المستشفى حيث هؤلاء الذين جاءوا من مناطق لم تعرف الملاريا .. وكانت النتيجة هي أنهم أصيبوا بها ..

أجرى مائة تجربة شديدة الإحكام ، فالحقيقة أنه كان ألعن ناقد لنفسه ... وقد فكر في نقاط تنقض نظريته لم يفكر فيها أحد قط .. حتى احتمال أن يكون البعوض قد ولد مستعدًا لنقل العدوى .. حتى هذا الاحتمال استبعده ..

في النهاية صار واعظًا يعظ بشيء واحد :

ـ « اقتلوا (الزانزاروني) .. تخل إيطاليا من الملاريا ! »

وكأنبياء العهد القديم الغاضبين وقف يلوم قومه :

ـ « يا حمقى ! تمشون في الشوارع ليلاً ووقت الغروب دون واق يحميكم من لدغات (الزانزاروني) ! لا تخرجوا في الأمسيات الدافئة ما لم تضعوا لثامًا على وجوهكم وتضعوا القفازات .. »

ثم انطلق إلى أكثر أماكن إيطاليا ازدحامًا بالملاريا .. سهول (كاباتشيو) ..

كان هذا صيف عام 1900 .. نهاية القرن التاسع عشر ولا تعتقد أنها بداية القرن العشرين من فضلك فهذه المعلومة صارت مملة ..

حصل على منحة مالية من ملكة إيطاليا ليطبق فكرته ..

قام بوضع السلك على نوافذ الفلاحين .. أرغمهم على البقاء فى بيوتهم الحارة بعد الغروب .. منحهم مكافآت مالية .. ويخهم .. طاردهم .. كأنه طاغية يحمل سوطًا ..

أبقاهم بعيدين عن البعوض وبرغم هذا كانوا يتنفسون الهواء الفاسد الذى كانوا يعتقدون أنه يسبب الملاريا ..

وفى نهاية الصيف لم يصب بالملاريا سوى خمسة أشخاص من كل هؤلاء ..

وهكذا عرفت إيطاليا وعرف العالم الحقيقة ..

لكنى لم أهزم بعد .. ما زالت الملاريا مرضًا خطرًا ومهمًا .. لأن القضاء عليها يقتضى إبادة البعوض ..

كيف يمكن أن تبيد البعوض ؟

* * *

4ـ هـــو..

فرغ د . (يوكيجيمـا) طبيب الأعصـاب اليابـانى مـن فحـص المريض ..

أعاد مطرقته إلى جيبه وأضاء جهاز فحص قاع العين وانحنـى على رأس المريض وفتح عينه ..

قال د . (أبلتون) فى حذر :

ـ « كن حذرًا .. لربما كانت حمى مخية أو التهابًا سحائيًا .. نحن لا نعرف ما به .. لربما كان يحمل الموت فى أنفاسه ... »

ثنى د . (يوكيجيما) عنق المريض ، وقال :

ـ « لا أظن هذا .. إنه لين تمامًـا .. لا توجد علامـات التهـاب فى السحايا .. »

ثم راح يفتش جوار الفراش بحثًـا عن زجاجـة الدواء التـى ستفسر كل شىء .. وقال وهو يمسك بشريط دواء :

ـ « لا أجد زجاجة فارغة .. لا أعتقد أنـه حـاول الانتحـار بتعاطى منوم ما .. »

ـ « ليس من الطراز الذى ينتحر على قدر علمى .. »

تفحّص اليابانى الشريط شبه الفارغ ، وقال :

ـ « (دوكسيسيكلين) .. لقد كان يأخذ أدوية الوقاية من الملاريا بانتظام .. »

ـ « أعتقد هذا .. إن لم يكن الشريط قديمًا .. »

فى هذا البلد حيث بدأت مقاومة الملاريا تتزايد ، لم تعد الأدوية التقليدية صالحة لحمايتك ، لهذا يعتمدون كثيرًا على كبسولة (دوكسيسيكلين) يوميًا .. هذا بالطبع شاق ويسهل نسيانه ، دعك من أنه أسلوب وقاية لا يناسب الأطفال ولا الحوامل ..

تحسس اليابانى جسد المريض .. بالتأكيد كانت حرارته مرتفعة جدًا ..

قال وهو ينهض :

ـ « هذه حالة حمى مصحوبة بغيبوبة .. غيبوبة عميقة جدًا .. الاحتمالات عديدة كما تعرف .. يجب أن ينقل للعناية المركزة الآن .. أريد فحصًا للمخ بالأشعة المقطعية حالاً ... أريد عينة من السائل النخاعى الشوكى .. »

إن الاحتمالات كثيرة ، لكن الملاريا المخية هى أول احتمال فى المناطق الحارة .. الجميع يعرف هذا ..

وفى العناية المركزة رقد المريض لا يعرف ما يدور من حوله ولا ماذا يقال .. هل هو حلم طويل ؟ هل يقترب من الأبدية ويعرف ما عرفه هؤلاء الذين سبقوه إلى القبر ؟ لا أحد يعرف .. المحزن أن مرضى الغيبوبة يموتون أو يعودون لعالم الواقع فلا يذكرون أى شىء ..

إن تنفسه منتظم فلن يكون هناك داع للتنفس الصناعى ..

أولجوا له أنبوبًا أنفيًا للتغذية وقاموا بأخذ العينات اللازمة منه .. وصل الطبيب الروسى (فاسيلى سيمياكوف) وقد جلب معه خطيبته (سيمونيتا) الإيطالية ، فهتفت عندما رأت المنظر :

ـ « بالله عليك قل لى ماذا حدث لهذه الوحدة ؟ منذ يومين كان (ماكفادين) واليوم هو ؟ »

قال (أبلتون) وهو يتحسس نبض الفتى :

ـ « كنا نعتقد أن (ماكفادين) يعانى الملاريا .. لم يطل هذا الاعتقاد ، فقد اتضح أنه مصاب بخراج كبدى .. لكن الأمر وارد هنا جدًا .. على فكرة هناك شهود عيان يقولون إن الفتى كان

مشتتًا فى اليومين السابقين وكان تركيزه ضعيفًا .. ربما كانت هذه بدايات المرض .. »

قال الروسى وهو يتحسس شعر الفتى :

ـ « لماذا ؟ إنه يتعاطى أدوية الوقاية من الملاريا .. »

ـ « لو اتضح أنها ملاريا فلسوف نجد تفسيرًا .. »

قال الروسى مكلمًا الفتى الذى لا يسمع :

ـ « سوف تفيق يا صديقى .. صدقنى .. »

كان (سيمباكوف) هو الذى دق الباب عدة مرات فى الصباح فلم يرد صاحبه .. نزل إلى قسم الجراحة فوجدهم يغلون غيظًا لأن الفتى لم يأت بعد .. إنه موعد مهم جدًا ومن المستحيل أن يتقاعس عنه .. هو يعرف صديقه ويعرف أنه القلق مجسدًا لو طلب منه شىء .. لو أنك أمرته بالاسترخاء لتوتر ووضع جدولاً يسترخى به !

هكذا بحث عن صاحبه فى الكافتيريا .. فى ردهات الوحدة .. فى الحديقة ..

لا أثر له ..

صعد من جديد إلى غرفته وواصل دق الباب ..

ثم لما استبد به القلق طلب مشرف الطـابق وأغراه بأن يفتح الباب بالمفتاح الذى يحمله (فقـط لأطمئن) .. هكذا عالج الرجل الباب وشهق وهو يفعل هذا ..

كان الفتى ساقطًا على الأرض .. يلبس المعطف مما يعنى أنـه سقط ليلة أمس لدى عودته للغرفة أو صباح اليوم بعد ما ارتدى ثيابه .. على كل حال الفراش لا يوحى بأن هناك من نام فيه ..

كان عنقه ملتويًا وهذا سبب الشخير المخيف الذى يصدر منه ..

حاول أن يوقظه معتبرًا أنها حالة إغماء ، برغم أنه يعـرف أن الإغماء لا يطول أبدًا أكثر من ثلاث دقائق .. وأن السقوط أرضًا كاف للإفاقة ..

بالطبع كانت محاولات حمقاء ، لهذا جرى إلـى الهاتف وطلب مختص الأمراض العصبية كمـا طلـب د . (أبلتـون) لأنـه يعرف أنه بارع ..

بعد دقيقة ظهر د . (يوكيجيما) اليابانى ، وهو بـادى الدهشـة والقلق ، فهو لم يعتد أن يفحص طبيبًا فى غرفته من قبل ..

وكانت النتيجة كالتالى : هذه غيبوبة .. لا يمكن التكهن بسببها من دون المزيد من الفحوص ..

إن الأصوات التى تحدثها الكرات فى الصنـدوق المغلق لا تدل على شىء ..

* * *

بعد ساعتين كانت النتيجة واضحة ..

إنها الملاريا المخية ... واحدة من أفظع مضاعفات الملاريا ..

كان علينا أن نخمن هذا .. عندما تتغير الشخصية بلا تفسير ويقل التركيز فى شخص يفتقر إلى المناعة فالملاريا المخية واردة ..

سوف نبدأ العلاج حالاً ثم نحاول الفهم بعد ذلك .. إن مسـتوى الجلوكوز فى دمـه منخفض جدًا وهى من العلامـات المميـزة لملاريا (فالسيبارم) .. سوف نبدأ (الكينين) الوريدى .. سوف نحافظ على التنفس ..

سوف نفعل كل شىء ..

فى هذا الوقت علينا أن نعرف لماذا أصيب بالملاريا .

لابد أنه كف عن تعاطى العلاج الوقائى منذ عدة أيام ...

فلماذا فعل د . (علاء عبد العظيم) ذلك ؟!!

* * *

5ـ أنــا ..

من بين أنواع الملاريا أنا الأخطر ..

لى ثلاثة أشقاء .. لكنهم لا يسببون مرضًا أخطـر من الرجفـة والحمـى .. إنهم سذج يفتقرون إلـى الحيلـة ، بينما أنــا .. أنــا (الفالسيارم) أقوى الأنواع .. وبرغم هذا أنا أسهلها فى العلاج ..

لو سمعت عن شخص هنا أو هناك فتكت بـه الملاريا ، فلتعلم أننى المسئول ..

أصيب الأمعاء فأحدث ما يشبه داء الكوليرا .. أصيب الكلية فأتلفها .. أصيب الكبد فأحدث التهابًا كبديًا .. أصيب الرئة فأحدث التهابًا رئويًا ..

إننى أسبب نقصًا فى نسبة السكر بالدم مما يقود المريض إلـى غيبوبة .. إننى أحطم خلايا الدم الحمر بكثرة ممـا يؤدى إلى أن يبول المريض بولاً أسود هو ما كان يسمى قديمًا (حمى المـاء الأسود) ..

لكن أخطر ما أسببه هو الملاريا المخية ..

يصيب هذا الداء من لم يكتسبوا بعد المناعة ضدى ..

بمعنى آخر .. أنت تولد هنا .. تتلقى اللدغات ألف مرة يوميًا ، من ثم تكون درجة عالية من المناعة ضدى ... لو عشت حتى سن ستة أعوام وهو ما أراه الآن فأنت منيع ضد المرض تقريبًا .. نفس ما يحدث فى مصر مع البلهارسيا .. إن الفلاحين يتحملون المرض أكثر بكثير من ذلك (الخواجة) الذى قرر أن يستحم فى الترعة فجأة .. بريطانيون كثيرون جربوا السباحة فى الترع فى مصر وهلكوا على الفور .. سعداء الحظ الذين عاشوا منهم قتلهم عقار (الطرطير) الذى كانوا يعالجون به البلهارسيا قديمًا ! بالنسبة للفلاحين المصريين كان العقار (مرهقًا) يقتضى أن يدبر الفلاح حمارًا يعيده لداره بعد أخذ الجرعة .. بالنسبة للغربيين كان (قاتلاً) !

ومن الغريب أن الأفارقة الذين يبتعدون عن البعوض ويدرسون فى أوروبا مثلاً يفقدون مناعتهم على مدى خمسة أعوام ..

يأتى الأوروبى أو الغربى الأبيض هنا ، وهو لم يتعرض للدغة فى حياته .. إنه يتعاطى الدواء الواقى من المرض ، لكنه لا يملك أية مناعة .. ثم يتوقف عن تعاطى الوقاية فيصاب بأخطر المضاعفات طرًا .. الملاريا المخية ..

فى البداية تبدأ أعراض فقدان التركيز واضطراب الأفكار وتغيُرات الشخصية ..

تبدأ نوبات تشنج شبيهة بالصرع .. ربما شلل نصفى أو رباعى .. ربما اضطراب فى التوازن يذكرك بالثملين ..

ثم تأتى الغيبوبة الثقيلة المصحوبة بارتفاع فى الحرارة ..

ما سببها ؟ ليس الأمر واضحًا لكم بعد ..

يقال إن السبب هو انسداد أوعية المخ الدقيقة ، ويقال إن استهلاكى عال جدًا من الجلوكوز والأكسجين مما يحرم المخ من هذين العنصرين الثمينين .. قيل إن السبب هو نواتج التأكسد الناجمة عنى ، أى أن فضلاتى تسمم مخ المريض .. وقيل إن ما يدعى (TNF) هو السبب ..

أنا لا أعرف .. أنا أمارس حياتى وكفى .. كما تكتب أنت الشعر ولا تعرف كيف ..

على كل حال صار علاج هذه الحالة العصبية ممكنًا لكن 10٪ ممن أصيبوا بها سوف يصابون بخلل عصبى دائم .. ربما تتدهور ذاكرتهم .. ربما يتدهور ذكاؤهم ..

* * *

لست شريرًا .. صدقونى ..

فقط لا أعرف لنفسى طريقة أخرى للحياة ..

لابد لي من تدميركم كي أعيش .. لابد لكم من القضاء عليّ كي تعيشوا ..

معركة شرسة منذ فجر التاريخ .. أحيانًا تبدو الغلبة لكم كما رأيتم أيام (روس) ويبدو كأنكم قاب قوسين أو أدنى من عالم بلا ملاريا .

ثم أكشر عن أنيابي من جديد وأعلن أنني لا أقهر .. يقولون إنه كلما اخترع العلماء مصيدة أحدث جاء للوجود فأر أذكى .. هذا ينطبق عليّ بشدة ..

إنني أتعلم المقاومة .. أكتسب خبرات غير مسبوقة ..

لقد حسبت أن أمري انتهى عندما حدثت تلك القصة للكونت (سينكونا) حاكم (بيرو) وزوجته الحسناء ..

لا تعرفون القصة ؟ إذن دعوني أقصها عليكم ..

كان الكونت (سينكونا Cinchona) حاكمًا عسكريًا إسبانيًا على (بيرو) عام 1638 ، وقد مرضت زوجته بداء غريب ..

كانت تنتفض للحظات ثم يغمر العرق جسمها كله .. بعدها تصاب بإعياء شديد وتنام يومًا كاملاً ..

هذا الكابوس يتكرر كل ثلاثة أيام .. برد .. حرارة شديدة .. عرق .. راحة .. وكانت الشهية تعود بعد الراحة .. ربما أكثر من اللازم ..

هكذا صارت حياة الزوجين جحيمًا .. جحيمًا يتكرر كل ثلاثة أيام ..

استدعى الكونت كل أطبائه .. طبعًا أطباء ذلك العصر ـ القرن السابع عشر ـ كانوا مجموعة من الجهلة الأثرياء .. ثياب فاخرة .. كلام كبير عن الصفراء والبلغم والماء الذى تختزنه الرئتان والشرايين التى تحمل الهواء .. أدوية مجهولة فى قوارير .. ثم لا شىء ..

عرف الكونت على الفور أن هؤلاء لن يشفوا زوجته لذا جرب الصلاة والرهبان ..

جاءت النجدة عن طريق رجال الدين لكن ليس كما تتوقع .. لقد جاءه القس يخبره بأمر ساحر هندى بارع قادر على شفاء زوجته ..

دهش الكونت لكنه كان مستعدًا لتجربة أى شىء ؛ لذا سمح للساحر بمقابلته ..

كان الهندى صلاقًا برونزى اللون يلبس كما يليق بساحر محترم : ريش وقواقع وجماجم حيوانات .. وقد جثا أمام الكونت ، وقال له :

ـ « أجدادى كانوا يراقبون الحيوانات السقيمة .. كانت تأتى إلى الشجرة المقدسة فى الغابة فتلوك بعضًا من قشرتها فتشفى .. حدث زلزال أسقط بعض هذه الأشجار فى البحيرة ، فتلون ماؤها بلون لحاء الشجرة .. هكذا عرف قومى أن من يشرب من مياه هذه البحيرة يشف من الحمى .. »

قال الكونت فى غلظة :

ـ « إذن فلتجرب هذا العلاج مع زوجتى .. »

قال الساحر :

ـ « بشرط ! أطلب من سيدى أن يطلق سراح المعتقلين من قومى فى السجون الإسبانية ! »

كان الكونت مستعمرًا إسبانيًا من طراز (بيزارو) و(كورتز) ولمثالهما من السفاحين الذين يجزون أعناق الهنود كلهم بصدد وباء إنفلونزا الطيور ، ولم يكن يطيق أن يبتزه هذا الهندى ، لكنه كذلك لم يكن يطيق أن يرى زوجته الحسناء ترتجف كل ثلاثة أيام .. أحيانًا ترغمنا الحياة على اختيار شىء بين أمرين كريهين ..

هكذا أمر بإطلاق سراح السجناء ..

غادر الهندى القصر وثبًا وركض إلى الغابة على قدميه الحافيتين ..

ثم عاد وهو يحمل وعاء فخاريًا به بعض القشور ..

نقع القشور فى الماء ، لكن بالطبع نحن نعرف أن الدواء لن يعمل بهذه الطريقة .. لابد من الكثير من الرقص والغناء حول الوعاء كما يفعل كل طبيب محترم ..

هكذا راح يؤدى عمله بإتقان حتى تورمت قدماه ..

وفى النهاية نهض وقدم إلى الزوجة المريضة ذلك الوعاء الفخارى وطلب منها أن تشرب !

ـ « إنه شديد المرارة ! »

هكذا لاحظت الزوجة ما لاحظه كل طفل بعد ذلك .. الدواء المفيد مر كريه المذاق دومًا ..

★ ★ ★

الآن جاءت ساعة الحقيقة ..

اليوم موعد ارتفاع الحرارة من جديد ..

الكونت متوتر .. هل تعاود الحمى زوجته ؟ لو حدث هذا فسوف يبدأ بذبح الهندى ثم يفكر فيما يفعل بعد هذا ..

لم تعد الحمى .. سبعة أيام كاملة ..

إنه الشفاء إذن !

وبكى الكونت وبكت الزوجة وبكيت أنا وإن اختلفت الأسباب !

من لحاء هذه الشجرة المقدسة خرج أول دواء للملاريا عابرًا المحيط إلى أوروبا مع القس .. وفى إيطاليا احتفظ الآباء (الجزويت) بسر هذه القشور ، وارتبط اسمهم بعلاج الملاريا .. عندما تشعر بحمى ورجفة اقصد القس اليسوعى ليباركك ويسقيك بعضًا من هذا الدواء الغريب ..

ثم أطلقوا على هذه القشور اسم (سينكونا) لأسباب لا تخفى على أحد ..

على أن العالم عرف فيما بعد اسمها كما كان الهنود يستعملونه .. (الكينين Quinine) ..

(الكينين) بداية النهاية للكابوس ..

(الكينين) الذى أنقذ حياة ملايين البشر ..

(الكينين) الذى كاد يقضى علىّ ..

لكنى تعلمت كيف أقاوم .. وكيف أستمر ..

* * *

5ـ هو..

ـ « ثمة شيء غريب هنا »

كان جلد د . (بالينجا بايلا) الأسود يلتمع في ضوء المصباح ، كأنه رجل نحت من الأبنوس الفاخر .. وكان يعبث في شاربه الكث مع مسحة الصرامة التي اعتاد أن يضفيها على نفسه .. لا توجد صداقات شخصية هنا ..

كانت كومة الأوراق أمامه تشي بأنه مشغول ولا وقت عنده لهذا الهراء .. إنه من الطراز الذي يشعرك بالذنب طيلة الوقت لأنه مشغول .. حتى لتشعر بالحاجة إلى الاعتذار فالفرار ..

جواره يجلس (أبلتون) وهو لا يكف عن النظر إلى (سيمياكوف) في ثبات كأنه صقر ..

قال (بايلا) :

ـ « أنت أقرب واحد له .. أليس كذلك ؟ »

في ارتباك همس (سيمياكوف) وهو يرجع للوراء خطوة :

ـ « ربما كان د . (ماكفادين) هو الذي .. إنه يراه يوميًا أما أنا فلا .. »

ـ « (ماكفادين) مريض .. إنه يتحسن لكن لا أستطيع لن أكلفه بشيء .. بالمناسبة ما حال المصرى ؟ »

قال (سيمياكوف) :

ـ « يقولون إنه يتحسَّن .. وعيه يعود ببطء .. ما زالت الحالة خطرة لكنهم يقولون إنه سيشفى على الأرجح ما لم يصب بالتهاب رئوى .. »

قال د . (أبلتون) الذى ظل صامتًا طيلة الوقت :

ـ « أنت تعرف القصة .. لقد فحصنا الغرفة .. كل شىء يدل على أنه كان لديه (الدوكسيسكلين) وبرغم هذا أصيب بملاريا مخية ... ما السبب ؟ »

ـ « هذه الأشياء تحدث يا سيدى .. كم من أسرار لا إجابة عنها فى الطب ! »

ـ « لكننا كذلك نتعلم أنه ليس بوسعنا الرضا بإجابات جاهزة .. »

ثم لوَّح بقلمه فى الهواء ، وأردف :

ـ « الاحتمال الأول هو أن العقار فقد قدرته على الحماية .. وهو احتمال خطر كريه .. لو كان صحيحًا لوجدت هنا أقطاب علم

المناعة وطب المناطق الحارة والطفيليات والصحة العالمية .. أن تظهر الملاريا مقاومة لهذا العقار الذى استخدمناه بعد ما قاومت العقاقير القديمة مثل (الكلوروكين) لأمر مخيف .. معنى هذا أنه لم يبق لنا إلا (المفلوكين) باهظ الثمن .. لهذا أفضل أن أؤجل هذا الاحتمال بعض الوقت .. »

ـ « والاحتمال الثانى ؟ »

ـ « أن صاحبك لم يكن يتعاطى العلاج .. لقد توقف عنه منذ برهة .. »

ـ « ولماذا يفعل هذا ؟ »

ـ « نتوقع منك بعض التفسيرات .. »

فكر (سيمياكوف) بعض الوقت ، ثم قال فى حذر :

ـ « هل تتحدث يا سيدى عن محاولة انتحار ؟ »

ضحك الرجلان كثيرًا وتبادلا النظرات .. لا شىء يثير الغيظ مثل أن يضحك الناس مما تقول دون أن تفهم موضع الدعابة .. هذا يشعرك بأنك أحمق تمامًا ..

أخيرًا قرر (أبلتون) أن يفسر ما هناك :

- « لا أتحدث عن انتحار .. ليس إلى هذا الحد .. لا أحد ينتحر عن طريق الامتناع عن تعاطى الوقاية من الملاريا .. هناك طرق أسهل من هذا بكثير .. أنا أتحدث عن إهمال .. أتحدث عن فقدان الرغبة فى الحياة .. هذا شخص لم يعد يبالى بأن يمرض أو لا يمرض .. ذات المنطق الذى يجعل المرء يدخن ثلاث علب من التبغ يوميًا .. هذا هو ما أتحدث عنه .. »

هنا تدخل المدير قائلاً دون أن يرفع عينه :

- « فى قراءة معينة نحن نسمى هذا انتحارًا .. لكنه انتحار بطىء .. ويحركه المنطق ذاته .. »

نظر (سيمياكوف) لهما فى غباء ، فقال (ابلتون) :

- « سوف تتشمم هنا وهناك .. أريد أن تعرف الأسباب التى دفعت هذا الشاب لعدم تناول دواء الوقاية بضعة أيام .. أيام معدودة لكنها كافية لقطع دورة المقاومة .. هذا هو ما سبب ما حدث ، خاصة أنه لا يملك أى قدر من المناعة .. »

قال (سيمياكوف) :

- « أشك فى أننى قادر على اختراق عقله .. هو أميل إلى التحفظ وإبقاء نفسه لنفسه .. ربما أجابنا هو عن هذا السؤال عندما يفيق .. »

ـ « حتى ذلك الحين .. تذكر أنك تتأكد من حقيقة أخطر من مزاج صاحبك النفسى .. تتأكد من عدم ظهور مقاومة لعقار (الدوكسيسكلين) .. »

هكذا تلقى (سيمياكوف) المهمة .. المهمة المستحيلة التى كان الأجدر أن يتولاها (علاء) ذاته ، لكن (علاء) الآن فى العناية المركزة يتلقى (الكينين) و(الدكستروز) ، ويحاول الأطباء منع مخه من أن ينتفخ فيقضى عليه ..

* * *

جلس فى غرفة الفتى الخالية مع خطيبته (سيمونيتا) ... لقد سمح له المدير بالتفتيش .. هذا شعور غريب على كل حال ، فأنت لا تفتش غرفة إنسان وإنما أنت تفتش فى ضميره .. تفتش ذكرياته .. تفتش قلبه ..

قال لها :

ـ « أشعر بأننى نذل وفضولى وربما منحرف كذلك .. »

ابتسمت مقدرة ، وقالت :

ـ « الآن فقط عرفت هذا ؟ »

راح يقلب بين أوراق (علاء) الموضوعة على المنضدة .. هناك بعض الكتب الطبية .. هناك مفكرة وهناك قلم من الحبر الجاف .. هناك ملاحظات .. هناك خطابات بعضها مفتوح وبعضها تم لصقه .. ثمة جهاز كاسيت صغير عليه أغان عربية لم يفهم منها شيئًا ..

لا يوجد جهاز كمبيوتر ، فهو يستخدم أحد الأجهزة فى قاعة المكتبة لمراسلاته .. إن أجهزة الكمبيوتر مفيدة دومًا والتنقيب فيها تكون نتائجه مثيرة ..

يجب أن يرغم الناس على الاحتفاظ بجهاز كمبيوتر يضعون عليه أسرارهم إذا قرروا أن يصابوا بغيبوبة ..

هناك زجاجتا عطر ، ومزيل للعرق .. مجموعات من الجوارب .. ألبوم صور تظهر (علاء) مع زوجته الكندية .. واضح من الخلفيات أنها التقطت فى وحدة (سافارى) التى جاء منها لأن هناك الكثير من الصور فى الأحراش ... بعض الصور فى بلد شرق أوسطى ما .. طبعًا مصر على الأرجح ..

هناك شريط شبه فارغ من (الدوكسيسيكلين) موضوع هناك على المنضدة .. هذا لا يدل على شىء .. قد يكون توقف منذ أسبوع .. قد يكون توقف منذ جاء هنا ..

تفحصت الشريط وراجعت تاريخ الصلاحية .. لا يوجد احتمال غير أنه نسى استعماله ..

أو تجاهل ذلك ..

قالت (سيمونيتا) وهى تلتقط مفكرة وتقلب صفحاتها :

ـ « هذه مذكرات .. أنا متأكدة من ذلك .. »

ـ « بالعربية طبعًا . »

ـ « لا أحد يكتب مذكراته بلغة غير لغته الأم .. هناك من يفعلون هذا على سبيل الشفرة ، لكن لماذا يفعل ذلك ؟ ليس هناك شخص عربى فى هذه الوحدة .. »

قال لها وهو يبتسم :

ـ « أعتقد أن لدينا هنا ما يلزم .. هذه المذكرات سوف تفسر لنا كل شىء .. »

ثم تصفح الخلفية .. باطن غلاف المفكرة .. كانت هناك علامات متلاحقة تذكرك بالأرقام الثنائية التى يعرفها خبراء الكمبيوتر :

12 13 14 15 16 17 18 19 ..

1 1 1 1 1 1 1 1

ـ « ما معنى هذا ؟ هذه شفرة .. لكن علام تدل ؟ »

كانت (سيمونيتا) بارعة الذكاء .. إن النساء يملكن هذا النوع السريع (الخاطف) من الذكاء .. إنهن (لماحات) دائمًا . بينما يتفوق الرجال فى النوع البطيء المتعمق من الذكاء ، لهذا تكون فتاة التتابع في السينما فتاة (كما هو واضح) بينما يكون الفيلسوف رجلاً غالبًا .. لهذا فهمت على الفور :

ـ « الأرقام هى أيام الشهر .. لاحظ أنها تتكرر من رقم (1) إلى (30) أو (31) ... التاريخ يبدأ بقدومه إلى جنوب أفريقيا .. لقد كان يضع علامة (1) تحت كل يوم يمر بانتظار العودة .. »

ـ « شيء يحدثنى بأنه لم يحب حياته هنا .. لا أحد يعد الأيام إلا من يقبع فى زنزانة .. »

قالت له خطيبته وهى تتصفح المفكرة التى ملأتها كلمات عربية :

ـ « ومن يقرأ لنا هذا الكلام ؟ »

قال شارد الذهن :

ـ « من السهل أن نجد من يفهم العربية .. هناك عرب فى هذا البلد .. دعك من أننا ولابد واجدون طبيبًا باكستانيًا أو ماليزيًا يجيدها .. »

ثم طوى المفكرة ، وغمغم :

ـ « آمل أن يستفيق .. إننى أحب هذا الفتى .. »

* * *

كان (علاء) هناك ..

هناك أين ؟

حقًا لا أستطيع أن أوضح لك أكثر من هذا .. نحن هنا .. هو هناك .. أنا لم أذهب إلى ذلك المكان الذى يذهب له من هم فى غيبوبة ، وإن كنت أحسبه بعدًا آخر .. ثمة بعد خاص للنائمين ، وبعد خاص للمحتضرين .. فى ظروف معينة يتلاشى الفاصل بين الأبعاد وتمتزج ..

لابد أنه بحث كثيرًا عن موضعه .. عن الفتحة السرمدية التى تقتاده إلى الممر اللولبى الخاص بمن هم فى غيبوبة .. إنه يزداد حكمة .. إنه يزداد قربًا من الحقيقة .. أية حقيقة ؟ لا أعرف .. أنا لم أذهب هناك قط كما قلت لك .. لو مات لاستمرت معرفته .. لو عاش لنسى كل شىء ..

فقط يعرف أن عليه ألا يخلط بين الدهاليز .. لو عبر الفتحة الأخرى فلربما دخل ممر المحتضرين .. فى نهاية ذلك الممر ظلام .. ظلام لا نعود منه أبدًا ..

هناك من تقف على الفتحة حاملة شمعة .. لا يتبين ملامحها وسط كل هذا البهاء الكونى ..

يدنو أكثر فأكثر .. ثم يشهق ويتراجع للوراء :

ـ « (برنادت) ! !»

تقول بسرعة كى لا يبكى ذعرًا :

ـ « لا تخف .. أنا بخير .. هذا طيفى جاء يقودك إلى السلام .. لا تخف أبدًا ... »

ـ « كونك هنا يعنى أن .. »

ـ « كونى هنا لا يعنى أن مكروهًا حلّ بى .. والآن اترك أسئلتك جانبًا واتبعنى .. »

كما (بياتريس) تقتاد (دانتى) فى ظلمات العالم الآخر فى (الكوميديا الإلهية) .. لكن (بياتريس) كانت قد ماتت فى صباها .. (برنادت) تؤكد أنها بخير ، و(علاء) لم يسمعها تكذب من قبل .. الأطياف لا تكذب ..

يهمس (علاء) :

ـ « لماذا أنا هنا ؟ »

ـ « الملاريا ! »

ـ « الملاريا فتكت بى ؟ »

ـ « بل كانت .. سوف تنجو .. ثق بى .. أنا أعرف أنك ستنجو لأننى أحبك حقًا .. »

ـ « أنا ... أحبك حقًا .. »

قالها فى شىء من الخجل .. الأطياف لا تكذب لكن الأسوأ لا ينطلى عليها الكذب ..

تمسك بيده بيدها الهشة الباردة .. يحب أيدى الإناث الباردة لأنها تدل على روح يقظة قلقة .. يد الأنثى الدافئة توحى باطمئنان غبى وكثير من أكل (المحشى) .. لكن .. كيف تكون يد الطيف باردة ؟

تقتاده .. ينظر عبر الممر ليرى رقصة الأضواء المجنونة .. سُدُم .. نيازك .. شهب .. ظلال .. أشباح .. ذكريات .. كل شىء بالداخل .. لعبة كمبيوتر عملاقة لا رجعة منها ..

ـ « أنا خائف ! »

ـ « لا تكن طفلاً . .. فكر فى الأمر كحلم كبير .. »

ـ « حلم قد لا أفيق منه .. »

ـ « فقط لو أخطأت السبيل ... »

يخطو خطوته الأولى فى الممر فتنغرس ساقاه حتى الركبتين فى غبار هشّ لا قوام له ...

ـ « أنا أغوص ! »

لكنها لم ترد .. يرفع وجهه بحثا عنها فيجدها واقفة قرب الفتحة والدموع فى عينيها :

ـ « لن أستطيع أن أتبعك أكثر من هذا . أنا آسفة .. أنا جئت من ممرات الحلم وليس من حقى أن أدخل ممرات الغيبوبة .. »

ـ « لكن هذا الغبار يبتلعنى .. »

ـ « لن يفعل .. سوف تقاومه وتخرج .. فكر فى ... فكر فى الوطن .. فكر فى أمك .. لن تعود لها من جنوب أفريقيا جثة ملفوفة بالأكفان .. لن يقف أخوك الباكى ينتظرك فى المطار .. أنت لا تطيق أن تقدم لهما كل هذا الحزن .. قاوم .. قاوم ! »

* * *

ـ « إنه يغوص فعلاً .. »

يقولها طبيب الأمراض العصبية وهو يلاحظ العلامات المقلقة لانتفاخ المخ .. يصرخ فى الممرضة :

- « هلمى .. أريد أن تضخى (المانيتول) حالاً .. »

على المرقاب تبطئ ضربات القلب أكثر ... يرفع جفنى الفتى ليفحص عينيه بكشاف صغير .. الحدقتان تتسعان ..

- « كورتيزون ؟ »

- « نعم .. نعم .. أدعو الله ألا تكون هذه حماقة ، لكن لا وقت للندم ! »

الممرضة تبدأ فى ضخ (المانيتول) .. (الكورتيزون) مضرٌ فى حالات الملاريا المخية لكن الموت مضر أكثر ..

★ ★ ★

علاء يغوص أكثر و(برنادت) تناديه من حيث توقف جوار الفتحة :

- « تماسك يا (علاء) .. لن يقضى عليك هذا .. لن تعود للوطن جثة هامدة بسبب بعوضة ! كنت تتمنى نهاية أكثر خطورة وتأثيرًا ! تماسك ! سوف تخرج من هذا الغار .. سوف تخرج ! »

★ ★ ★

6ـ أنـــا ..

من ضمن هواياتى المعتادة أن أسبب الإجهاض للحوامل اللاتى أصيبهن ..

إن الحامل هشة بطبعها وحتى لو كانت مناعتها لا بـأس بها ، فإننى أملأ دمها .. أسبب لها فقر الدم ..

وهكذا يصير من السهل جدًا أن تفقد وليدها ..

لكن إذا جاء الوليد إلى العالم ، فمن الوارد جدًا أن يكـون قليل الوزن معرضًا للهلاك فى أية لحظة ..

يمكنك أن تفحص الحبل السرى .. على الأرجح ستجدنى هنـاك .. لكن الرضيع نفسه لا يصـاب بالملاريـا علـى الأرجـح مـا لـم تكن الأم مفتقرة للمناعة ..

هذه هى العدوى الخلقية .. أن يـأتى الصغير إلـى العـالم وهـو يحملنى منذ اللحظة الأولى ..

وعلى الفور يجده البعوض وتبدأ دورة حياتى بطريقة أخرى ..

قلت لك إننى مرض مهم بالغ الأهمية ، لهذا تنفق علىّ منظمـة الصحة العالمية مبالغ طائلة .. حلـم القضـاء علـىّ هو ذات حلم

القضاء على البعوض .. هل استطاع الإنسان القضاء على البعوض ؟ لا ..

هنا فكر العلماء فى فكرة أعترف بأنها عبقرية ..

لقد بدأ عصر الجينات والهندسة الوراثية ..

يمكن إيجاد جنس من البعوض لا ينقل الملاريا ، وهذا البعوض سوف يتزاوج مع البعوض العادى .. فى النهاية تأتى العالم أجيال من البعوض الذى لا تنتقل له الملاريا .. وهكذا تقطع دورتى فى نقطة حساسة ..

إن هى إلا أعوام يشفى فيها المرضى أو يموتون ، وسرعان ما يجد العالم أن وباء الملاريا قد انقرض ..

★ ★ ★

6ـ هو..

قال (محمود نظير) وهو يتصفح المفكرة فى شىء من التردد :

ـ « ألا يعد هذا اعتداء على ملكية خاصة ؟ »

حكّ الروسى الشاب رأسه ، وقال فى ارتباك :

ـ « تمنيت لو أنفى ذلك .. فى الواقع لست متأكدا أنا نفسى من صحة الموقف ، لكن على الأقل هناك تعليمات لى من رئيسى .. يعتقد أن هذا مفيد »

ـ « ربما يفيق صاحب المذكرات ويرفع عليك قضية مطالبًا بمليون دولار تعويضًا»

ـ « لن ألومه لو فعل .. لكنه لن يفعل .. »

كانا جالسين فى ذلك المقهى فى (ديربان) وأمام كل منهما كوب كبير ملىء بالقهوة واللبن .. (محمود نظير) نادل باكستانى يعمل فى ذات المقهى الذى يعرفه (سيمياكوف) .. حسب قواعد التوزيع الطبيعى (تحت الجرس) التى يعرفها الإحصائيون ، فإن جل الشباب الباكستانى سيكونون نحيلين ، سمر اللون ، لهم هالات

سود ثقيلة تحت العينين .. الشعر الأسود الناعم الذى يغطى عينًا واحدة ، وتلك الراء المتضخمة المفخمة فى نطقهم للإنجليزية ..

فى البداية سأله (سيمياكوف) عما إذا كان يجيد العربية ، فقال الفتى فى نوع من الكبرياء الجريحة :

ـ « كيف لا أعرفها وأنا أقرأ القرآن ؟ »

وهى نقطة لاحظها الروسى كثيرًا لدى المسلمين غير العرب .. إن اتهامه بأنه لا يعرف العربية يعتبر نوعًا من الإهانة ..

قال (سيمياكوف) وهو يجذب المقعد :

ـ « إذن اجلس بالله عليك .. أريد أن تترجم لى ما كتب هنا .. »

نظر الباكستانى حوله فى ارتباك ، فقال (سيمياكوف) :

ـ « لا تقل لى إن صاحب المقهى يمنعك من الراحة عشر دقائق .. »

ـ « لا .. لن أقول هذا .. »

ثم أمسك بالمفكرة وتصفحها ، وقال :

ـ « سيكون هذا صعبًا .. إنه يكتب الملاحظات لنفسه بخط لايقرأ .. وعندما تقرأ الخط لا تفهم أبدًا ما كان يريد قوله .. »

قال (سيمياكوف) وهو ينادى ساقيًا آخر :

ـ « لدينا الوقت كله .. سأدعوك إلى بعض القهوة باللبن .. »

* * *

فى الصفحات الأولى كان هناك كلام كثير عن ضيقه بهذا البلد ، وشعوره بأنه منفى مرتين .. منفى بعيدًا عن موطنه ومنفى بعيدًا عن موطنه الأول ..

يقول فى فقرة معبرة :

ـ « هل تناولت الإفطار ؟ لا أذكر ولا يهمنى أن أذكر .. إن هى إلا بعض لقيمات سوف تستقر فى معدتى بعض الوقت ثم تتلاشى .. الجوع ؟ لا أعتقد أن لدى ترف الجوع .. الذين يجوعون هم الأشخاص الذين يشعرون بداخلهم وأنا فقدت هذه القدرة .. »

« هل نمت أمس ؟ لا أذكر .. إن الحياة لحظة طويلة مرهقة فلا أدرى إن كانت انقطعت أم لا .. هذا الوجه المنهك منتفخ الجفنين الذى يطالعنى فى المرآة صباحًا لا يشجعنى على أن أتحمس ... »

« يوم آخر فى بلد غريب وسط أناس غرباء .. تصور أن أخى ليس هنا .. أمى ليست هنا .. (برنادت) ليست هنا .. لن

يلومنى (بارتلييه) أو يمازحنى (بسام) .. حتى (ليفى) الوغد لن لستمتع بأن أمقته .. كل شىء هنا لا قيمة له .. لا أحد يرثى لهزائمك أو يفرح بانتصاراتك .. لا أحد يهتم بك حقًا .. »

« أريد جناحين .. جناحين ينبتان لى فجأة لأكون مثل (إيكاروس) .. سوف أركب المصعد إلى أعلى البناية .. سوف يسألنى رجال الأمن عما أريده لكنى أتجنبهم وأجرى .. أجرى فى خط متعرج نحو حافة السور ثم أفرد جناحى وأحلق .. أحلق ... سأطير فوق الأحراش .. فوق الوديان .. أعرف أن علىّ أن أتبع النجم القطبى نحو الشمال .. سوف أطير وأطير .. وسأعرف أننى وصلت عندما أشم رائحة (تقلية الملوخية) .. فقط وقتها سأفتح عينى وأدرك أننى أحلق فوق مصر .. أتبع النيل نحو الشمال .. نحو شبرا ... سوف أهبط على السطح وأنزل لأعانق أمى وألثم يديها .. سوف تقول لى إننى أبدو شاحبًا .. ستقول إننى فقدت وزنى .. ستقول إننى يجب ألا أعود .. لكنى ألتهم وجبة من يدها ثم أحلق من جديد لآتى بزوجتى من (أنجاوانديرى) .. »

قرأ (محمود) هذه السطور ثم نظر إلى الروسى، وقال وقد اتسعت عيناه رعبًا :

ـ « هذا البائس يعانى حالة حنين للوطن متقدمة .. إنه اكتئاب مزمن .. هل أنت واثق من أن كاتب هذه السطور لم ينتحر ؟ »

هزّ (سيمياكوف) رأسه ، وابتسم قائلاً :

ـ « لست واثقًا من ذلك .. هناك من ينتحرون وهناك من يكفّون عن طلب الحياة .. أعتقد أن النتيجة واحدة فى الحالتين .. »

ثم حك رأسه ، وقال :

ـ « أرجو أن تكمل .. »

* * *

كتب الفتى فى بضعة مواضع كلمة (أونوابا) مع صورة ساذجة بالقلم بأسلوب (السكتش) المعروف لوجه فتاة أفريقية طويلة العنق ساحرة النظرات .. لم يكن أفضل رسام على وجه الأرض لكنه كان مثابرًا ..

وكانت هناك صورة صغيرة على طريقة الملصق (ستيكر) تمثل حرباء خضراء تبرز لسانها وقد تحركت كل عين فى اتجاه .. تلك العادة المزعجة للحرباء التى تثير ذعر النساء .

كان هناك بيت شعر يقول :

ـ « عجبت حين تركتها كيف لم أمت

وكيف انثنت بعد الوداع يدى معى »

طبعًا كان البيت كما ترجمه الفتى الباكستانى يقول :

- « من الغريب أننـــى لـم أقض نحبـى عندمـا تركتهـا .. ومـن الغريب أن يدى عادت لى »

هنا تأمل (سيمياكوف) الصورة فى اهتمام .. ورمش بعينيه ..

هذا الاسم .. هنـاك بـالفعل ممرضـة عملـت فـى (ســـافارى) لفترة ثم اختفت .. اسمها (أونوابا) .. كان فيهـا قدر كبير مـن السحر .. كانت جديرة بـأن تكـون مـن الزولـو بقامتهـا الفارعـة ونظراتها الساحرة ، لكن من الغريب أن لغزًا ما كان يحيـط بهـا ، وكان الوطنيون أنفسهم يتجنبونـها ..

هذه الصورة وبيت الشعر .. ثم هذه العبارة التى كتبـت مـرارًا لا حصر لها :

« عار على الجبان الذى يظل فى كوخه حتى يحترق .. اخـرج وقاتل .. هيه هيه ىىىىى ! »

لا معنى لهذا إلا أن الفتى كان يحب هذه الـ (أونوابا) .. ثمـة علامات معينة لم يفطن لها (سيمياكوف) من قبل لكنـه يفهمهـا الآن ..

ممرضة طبيب واحد .. هذا ما قيـل لـه وتجاهلـه .. لكنه الآن يراه على ضوء آخر ..

(علاء) كتب هذه المذكرات بالعربية وهو علـى يقين أنـه لن يقدر أحد على قراءتها ...

حتى زوجته الكندية .. .

(علاء) متزوج ويحب زوجته .. أو هكذا يقول ..

إذن كيف استطاع أن يسمح لقلبه بـأن يسبح فـى هذا الاتجاه كريشة تسبح مع التيار ؟ وما سر صورة الحربـاء هذه ؟ .. هل اكتشف أن الفتاة تتلون ؟ هل كانت تكذب عليه ؟

فى الصفحة التالية كانت عبارة تقول :

ـ « بكيت أمام (محمود لطفى) . .. لم أبك أمام أحد منذ دهر .. كم أن هذا جميل .. كم أن هذا قاس ! »

من هو (محمود لطفى) ؟ إن الألغاز تتكاثر ..

سأل الفتى الباكستانى :

ـ « هل تفقد رغبتك فى الحياة إذا فقدت المرأة التى تهواها ؟ »

قال الفتى حار الدماء الذى هو ككل الهنود كتلة أعصاب عارية لا يغطيها إلا الجلد :

ـ « طبعًا .. لماذا يفقد المرء رغبته فى الحياة إن لم يكن هـذا هو السبب ؟ »

★ ★ ★

7ـ أنـــا ..

كانت أيامي مع عقـار (الكلوروكيـن) قاسـية .. لقـد كـان المريض يتعاطى بضعة أقراص من هذا العلاج فيشفى ..

بالنسبة لإخوتي من الأنواع التي تعرف كيف تنام داخل الكبد كان هذا يعني الهزيمة في المعركة لا في الحرب .. سوف يقضي على الطفيليات التي تسبح في الدم ويشفى المريض إلى حين .. سرعان ما تفيق الأنواع النائمة في الكبد لتبدأ الدورة من جديد .. ولهذا كان على المريض أن يتعاطى عقار (بريماكين) كي يقضي كذلك على الأنواع النائمة ..

بالنسبة لي أنا (الفالسيارم) لم يكن هذا بوسعي .. فـلا حياة لـي خارج الكريات الحمر ، ولا أعرف كيف أنام في الكبد بانتظار العودة ..

معنى هذا أن تعاطي عقار (كلوروكين) كان كافيًا للقضاء عليّ ..

كـان علـيّ أن أستمر .. وهكذا بـدأت أتعلم كيف أقـاوم عقـار (كلوروكين) هذا ، ومعه تعلمت على مدى خمسة وعشرين عامًا كيف أقاوم العديد من هذه العقاقير .. لا أعرف كيف فعلت ذلك .. لعلي ابتكرت طرقًا فرعية للنجـاة مـن مفعولـه ، أو هـو الانتخـاب

الطبيعى الذى تكلم عنه (داروين) . .. بعض أفرادى خلقوا قادرين على مقاومة (الكلوروكين) .. هل رأيت فيلم (الرجال X) ؟ هل تعرف معنى الطفرة ؟ تخيل الفنان أن هناك طفرات تجعل المرء قادرًا على التحكم فى الطقس أو إخراج الثلج أو النار من أنامله .. حسن .. ليس الأمر بهذا الجموح بالنسبة لى .. فقط هناك أفراد جاءوا للعالم قادرين على مقاومة هذا العقار اللعين .. هذه الأنواع استطاعت أن تبقى حية وأن تنقل صفاتها لأجيال تالية .. هكذا جئت أنا من أبوين يقاومان (الكلوروكين) .. عشت وازدهرت .. ومع الوقت لم يعد هناك غيرى تقريبًا ..

فى جنوب شرق آسيا وأماكن عديدة من أفريقيا لم أعد أتأثر بالكلوروكين .. إن مناعة الملاريا ضد العلاج تزداد سوءًا .. بدأ هذا عام 1961 فى أمريكا الجنوبية ، وحاليًا هو فى العالم كله .. (علاء) لم يشعر بهذا فى الكاميرون لأن غرب أفريقيا لم يعرف هذه المشكلة بعد ..

عقار (البروجوانيل) لم تعد له قيمة ..

(الفانسيدار) لم تعد له قيمة ..

(الكينين) لم تظهر له مقاومة إلا فى تايلاند .. هذا لحسن حظ الجميع ..

ولهذا يسهر العلماء محاولين ابتكار أدوية جديدة ..

(علاء) كان يعرف أنه ليس بوسعه ابتلاع أقراص (الكلوروكين) للوقاية هنا في جنوب أفريقيا ؛ لذا بدأ في تعاطى (الدوكيسيكلين) .. لابد أن (شيلبى) أستاذه الأمريكى هو من علمه ذلك ..

لكنه برغم هذا أصيب بالملاريا .. أصيب بأفظع مظاهرها .. الملاريا المخية ..

أنا الآن أعبث فى دورة دماغه .. لو حالفه الحظ لبقى حيًا .. ولو حالفنى الحظ لبقى حيًا .. لا يوجد خطأ مطبعى هنا .. لأن موت المريض أمر خطير بالنسبة للطفيليات كذلك .. هذا يعنى نهاية حياتها هى ذاتها .. الطفيل الذكى هو الذى يظفر بما يريد من المريض ويبقيه حيًا ... هكذا تفعل الطفيليات الأكثر تطورًا ..

ترى أية ذكريات تعبث فى خلايا هذا العقل غير الواعى ؟

* * *

7 ـ هـو..

يواصل (سيمياكوف) سماع ذكريات الفتى كما يحكيها لـه (نظير) ..

يقلب (نظير) الصفحات .. هناك أشعار .. كلمات من أغان .. ثم يتوقف لحظة ويمعن النظر فيما يقرأ ..

ـ « لا شيء مما يدعوك للتفكير .. هناك آلام معدة مزمنـة لديه .. يبدو أنه يعانى الإمساك كذلك .. »

يقول (سيمياكوف) :

ـ « ليس هذا شاعريًا بـالمرة .. ستكون هذه أول مـرة على قدر علمى ينتحر فيها أحدهم لأنه مصاب بالإمساك .. »

وراح ينظـر إلى الجـالسين فى المقهى .. هـذا الخليط العجيب من الأفارقة والبيض والهنود ... ديكور المقهى الذى يوحـى لـك بأنك فى الأحراش .. كل شيء هنا تم تصميمه لاسترضاء السياح بهذه الصور التى تثير خيالهم ..

توقف (نظير) عند صفحة معينة وراح يتأملها فى اهتمام :

ـ « هنا مرثية لفتاة تدعى (جوجو) .. صحفية شابة مصابة بالإيدز .. »

نظر (سيمياكوف) إلى المفكرة .. هو يعرف هذه الفتاة ويعرف قصتها المؤسفة .. لقد ماتت بين يدى (علاء) بعد ما قتلها أهل قريتها .. لقد كانت صديقته .. كانت فتاة باسلة ولا شك فى أنها أحدثت جرحًا بليغًا فى نفس كل من عرفها ..

قال وهو يتذكر :

ـ « أعتقد أنه شىء يبعث على الاكتئاب .. لكنه ليس سببًا يحرّضك كى تعرض نفسك للخطر .. »

واصل (نظير) تفحص المفكرة ثم توقف عند صفحة بعينها وقال :

ـ « (دانييل تويزاك) .. تحت الاسم عدة خطوط .. من هو ؟ »

ـ « وكيف لى أن أعرف ؟ »

ـ « هناك تعليق يقول : (دانييل تويزاك) مصاب بالمرض منذ عامين ، وهو شاعر أفريقى واسع الثقافة .. اللحية المتنفشة الكثة والنظرة الحالمة التى تخترقك ... لكنى لم أسأله عن ظروف إصابته بالمرض .. على كل حال قد كوّنت قاعدة تقضى

بأن 20٪ من مرضى الإيدز هنا لا ذنب لهم فيما أصابهم .. الباقون يمكنك أن تخمن قصتهم بمجرد النظر .. كان (دانييل) من الطراز الأخير .. لقد أصيب بالداء لأنه استحقه .. منه عرفت كل شيء عن (سارة بارتمان) »

بعد صفحتين كتب (علاء) فقرة طويلة مفصلة :

ـ « مات (دانييل) .. لم أستطع أن أفعل له أى شيء .. لم أستطع أن أدوّر الفراش كما تقضى الأسطورة الشهيرة .. لقد جاء الموت ليقف عند رأس السرير .. كان قد بدأ يعانى صعوبة بالغة فى التنفس منذ يومين .. وقد فحصته بالأشعة فلم أر ما يريب .. كان يسعل بلا انقطاع فوصفت له بعض أدوية السعال ، واضطررت إلى أن أجعله ينشق الأكسجين النقى .. لكن الحالة ازدادت سوءًا واكتسب لونًا أزرق شديدًا ...

« طلبت رأى (ماكفادين) فهرع يفحص الفتى ، ثم طلب منى أن أعطيه عقار (بنتاميدين) .. إنه إذن (PCP) ذلك الطفيل اللعين الذى يقدر على قتل مرضى الإيدز .. الطفيل الذى جعل العالم يعرف مرض الإيدز فى البداية الأولى فى الثمانينات .. بالفعل بدأنا الحقن بينما نظر لى (ماكفادين) نظرة طويلة لائمة ، وقال :

ـ « كان بوسعك أن تبدأ منذ ثلاثة أيام .. »

قلت له :

ـ « لقد أجريت فحصًا بالأشعة فلم أر ما يريب .. »

ـ « لا تستطيع أن تزعم هذا ما لم تجر له غسيلاً شعبيًا حويصليًا .. تسحب السائل وتحلله بحثًا عن ذلك الطفيل اللعين .. »

هكذا قضيت الليل أحاول إنقاذ (دانييل) بلا جدوى .. لقد افترس المرض رئتيه بسرعة جهنمية .. هذا الطفيل الذى لايستطيع عمل أى شىء لرئة شخص مكتمل المناعة ، هو الطفيل الذى يقود مريض الإيدز إلى القبر ..

لقد دخل (دانييل) فى غيبوبة طويلة استغرقت عدة ساعات وفى النهاية توقف تنفسه تمامًا .. لقد انتهت معاناته فى عالمنا هذا ...

اتجهت إلى (ماكفادين) وقلت له وأنا أنظر إلى الأرض :

ـ « لو كنت تحملنى مسئولية موته فأنا متأهب .. »

قال وقد احمر وجهه أكثر من ذى قبل :

ـ « لا أستطيع .. أنت تتحمل جزءًا من المسئولية .. الجزء الأكبر منها يقع علىّ أنا لأنى تركت لك الجزء الأكبر مما يجب أن أقوم به أنا .. أنت غير مختص وكان علىّ أن أحذرك من هذه

النقاط التى نعتبرها بديهية .. والآن اتصرف وحاول أن تكون وفاة هذا الرجل قد أضافت لمعلوماتك شيئًا .. »

كان الرجل هالكًا فى كل الظروف .. ما كان بوسع بشرى أن ينقذه .. ولو لم يقتله هذا الطفيل لقتلته باكتريا (لسيتيريا) أو طفيل (كريبتوكوكاس) أو إسهال (كريبتوسبوريديام) .. أو ..

لكنى برغم هذا كرهت كثيرًا أن أكون صاحب علاقة ما بوفاته .. لو اخترت لآثرت أن أكون فى أبعد نقطة عنه لحظة موته ..

أعتقد أن وجهه سيطاردنى طويلاً جدًا .. بالذات وهو ينشد تلك القصيدة عن (سارة) .. »

فرغ (نظير) من الترجمة وفرغ (سيميلكوف) من الإصغاء ..

فكر (سيمياكوف) بعض الوقت ثم سأل الباكستانى :

ـ « هل يصيبك الاكتئاب وتكف عن طلب الحياة لو أغفلت نقطة ما أدت إلى موت مريض ؟ »

قال (نظير) وهو يرشف قدح القهوة الثانى :

ـ « فقط لو كنت أتمتع بضمير حى .. أعتقد أن الأطباء تعلموا كيف يسكتون هذا الصوت فى أعماقهم وإلا ما استطاعوا الحياة .. »

نظر له (سيميلكوف) وابتسم ... لم يكن يعرف (علاء) بما يكفي ، لكنه قدر أنه على الأرجح من ذلك الطراز شديد الحساسية الذي يمكن أن يفقد رغبته في الحياة لخطأ صغير أو حب مفقود أو عبارة لوم ..

- « هل انتهت المفكرة ؟ »

- « لا .. هناك كلام مهم كثير .. »

* * *

8ـ أنــا ..

ليس انتقالى مقصورًا على البعوض .. صحيح أن هذا هو الأسلوب الأكثر كفاءة لكن هناك طرقًا أخرى ..

مثلاً يمكن أن أنتقل عن طريق الوخزات ، وهنـا أبـدأ فـى ممارسة دورة حياة عادية وسط الكريات الحمر لكنـى لا أهاجم خلايا الكبد أبدًا ..

أنت تعرف الآن أنهم كانـوا يعالجون (الزهرى) فى الماضى بهذه الطريقة .. عندما ترتفع حرارة المريض بفعل الملاريا فإن بكتريا (الزهرى) تهلك فى العملية ..

هناك نقل الدم .. إن الملاريا تنتقل عن طريق نقل الدم كـأى مرض آخر .. خاصة عندما يكون الدم طازجًا .. يجب أن يشك الطبيب فى أى مريض ترتفع حرارته إذا كان قد نقل لـه دم منذ ثلاثة أشهر .. مدمنو المخدرات يصابون بالملاريا ضمن قائمة الأمراض الطويلة التى يسببها استعمال محقن ملوث ..

هل تعرف ملاريا المطارات ؟

مصطلح عجيب لكنه حقيقى .. البعوض يركب الطائرات القادمة من أفريقيا .. لقد تقدم كثيرًا ... لكنه ليس بحاجة إلى تأشيرات دخول ولا جوازات سفر .. فقط يركب الطائرة ، ثم يخرج إلى المنطقة المحيطة بالمطار ليلدغ من يجده .. لهذا من الوارد أن يصاب (سيمون) الفرنسى المقيم جوار مطار (شارل ديجول) بالملاريا ، برغم أنه يعيش فى بيئة صحية تمامًا ..

عندكم فى مصر تمارسون شيئًا مماثلاً مع السفن القادمة عبر النيل .. هذه السفن يتم رشها بالمبيدات بعناية لأن البعوض يستمتع بركوب السفن .. البعوض الذى يحمل الحمى الصفراء قادمًا من قلب أفريقيا ! لو أن الحمى الصفراء دخلت مصر فلسوف تجد وسيلة نقل ممتازة تتمثل فى تلك البعوضة الصغيرة التى تملأ بيوتكم ..

بالطبع حدثتك عن الملاريا التى تنتقل من الأم لجنينها .. هذا موضوع طويل ..

الحق أن الملاريا مرض مراوغ غريب الأطوار .. مرض بالغ الأهمية .. لا يمكن الكلام عنه إلا فى عدة مجلدات .. أعتقد أننى قد رددت على كل من قالوا إنه من العجيب أن يحكى طفيل رواية كاملة ..

لكن الأمور ليست على ما يرام بالنسبة لى ..

هذه المادة (الكينين) تتعالى فى دم الفتى ..

أشعر بها وأشعر بسميتها ..

مستوى (الدكستروز) يرتفع فى دمه وهذا يروق لى .. لكن هذا فى الوقت ذاته يعنى أنه يتلقى علاجًا ما ..

أعتقد أن حياتى لن تطول كثيرًا ..

لكنى نعمت بالكثير من المرح برغم كل شىء ..

* * *

8ـ هو..

انفجر (نظير) ضحكًا وهو مشهد غير معتاد .. هؤلاء الباكستانيون لا ينفجرون ضحكًا أبدًا وإنما يكتفون برفع الحاجبين كناية عن القهقهة ..

قال دامع العينين للروسي :

ـ « هنا جزء مهم حقًا .. هل كان هذا الفتى ذئبًا لا يكف عن مطاردة أية أنثى ؟ »

قال الروسي في حيرة :

ـ « على قدر علمي لا .. ما الذي يدعوك لهذا ؟ »

قال (نظير) وهو يرفع الدفتر بين أنامله :

ـ « هذا الكلام عن الفتاة الرقيقة الشفافة (مادلين كوفييه) .. إن هذه المفكرة تعج بأسماء النساء .. »

ـ « حقًا .. ماذا عنها ؟ »

فى هذه اللحظة ظهر صاحب المقهى ونظر نظرة نارية إلى (نظير) فوثب هذا فى الهواء .. هنا نظر (سيمياكوف) إلى القادم وقال فى ثقة الأثرياء :

ـ « سيدى .. إنه يقوم لى بعملية ترجمة مهمة جداً من العربية إلى الإنجليزية .. أنا مستعد لأن أدفع لك أى ثمن تطلبه مقابل ما أسببه من تعطيل للعمل .. »

قال صاحب المقهى وهو رجل بدين من الأفريكانز يبدو أنه يجيد البيزنس فعلاً :

ـ « ليست القضية هى المال .. إنها مسألة مبدأ .. لقد جاء هنا يعمل نادلاً .. هذا هو اتفاقنا .. لو أردت مترجمًا أو مصممًا لنظم الكمبيوتر لطلبت هذا بوضوح .. »

لم يكن (نظير) على استعداد لسماع مزيد من المحادثة ، فانطلق يركض بين المناضد يأخذ الطلبات .. وبدا أنه نسى كل شىء عن الموضوع .. لن يسبب هذا الروسى الأحمق فصلى ..

هكذا أسقط فى يد (سيمياكوف) خاصة أن الفتى دس المفكرة فى جيبه ..

اضطر الروسي وهو يغلي غيظًا إلى أن ينتظر حتى نهاية ساعات الدوام ..

وأخيرًا أمسك بيد الفتى الباكستاني واقتاده إلى مقهى آخر وطلب منه في شيء من العصبية أن يكمل ما بدأه ..

★ ★ ★

قال (نظير) وهو يترجم ما قرأه :

- « هناك اسم (مادلين كوفييه) .. ثم كلام يقول : عبثًا حاولت أن أجعلها تنسى الإهانة التي تلقتها لكنها لم تنس ... قلت لها إنني فعلت ما بوسعي .. وأشرت إلى الكدمات التي تملأ وجهي .. قالت لي إنها تفهم ، ثم ارتمت بين ذراعي باكية .. لم أستطع أن أبعدها أو أفعل شيئًا .. فقط رحت أبكي بدوري وأحاول منع المخاط من أن يسيل من أنفي على شعرها ..

« بدت لي طفلة عاجزة هشة .. تمنيت أن أقدم لها شيئًا .. أي شيء .. لكن ما هي الأشياء التي يمكن أن تقدمها لطفلة هشة عاجزة ؟ »

وصمت (نظير) ونظر في عيني (سيمياكوف) ، وقال :

- « إن لم يكن هذا حبًا يا صاحبي ، فما هو ؟ »

قال (سيمياكوف) مفكرًا :

ـ « لكنه كذلك ليس حبًا .. ثمة شىء غامض هنا ... الفتاة تبكى بعد تعرضها لإهانة .. كانت طبيبة فرنسية مخطوبة لفتى من (الهوتنتوت) يدعى (فيليب) .. ثم فجأة اختفى الفتى ولم نعد نعرف عنه شيئًا ، ويبدو أنها أضيبت باكتئاب وفقدت حيويتها .. لا أفهم .. »

قال (نظير) :

ـ « والبكاء بين ذراعى طبيبك هذا ؟ »

ـ « هذا لا يثبت شيئًا .. الرجل يتحول أمام دموع المرأة إلى طفل أبله عاجز عن عمل أى شىء منطقى .. لو لم تكن تبكى لتصرف بعقلانية أكثر .. »

فى النهاية أفرغ (سيمياكوف) باقى كوب العصير فى جوفه وسأل :

ـ « هل من تفاصيل أخرى ؟ »

ـ « أشياء بسيطة جدًا .. »

قال الروسى ، وهو يخرج ورقة عملة ويضعها على المنضدة :

- « أعتقد أننى كونت نظرية لا بأس بها .. (علاء) كان يحب ممرضة تدعى (أونوابا) .. وفى الوقت ذاته كان يمتحن الأقدار مع (مادلين كوفييه) .. عرفت (مادلين) هذا فصممت على الانتقام وعلى أن تخبر زوجته بالأمر .. هكذا ازداد اكتئابًا وقرر أن ينهى حياته .. لم يستطع أن يفعل هذا بشكل مباشر من ثم كف عن تعاطى الدواء الواقى من الملاريا .. ترك نفسه للعبة الأقدار ، لكن الغريب أن طريقته نجحت وأصيب بالملاريا المخية .. »

- « نظرية غريبة جدًا .. »

- « لكنها التفسير الوحيد .. »

ثم حك رأسه ونظر إلى المفكرة ، وقال :

- « هل من شىء آخر ؟ »

- « نعم .. فى الصفحة الأخيرة يقول : (ماكفادين) سوف يشفى .. أعتقد أنه خرّاج أميبى أو بكتيرى .. رباه ! كم أن مهنتنا خطرة فى هذه البلاد ! الهواء نفسه كارثة . فقط أنا مطمئن لأننى لم آت من عالمه المعقم .. أنا قادم من بلد من العالم الثالث حيث العدوى فى كل مكان ، لهذا لدى مناعة تفوق مناعته .. من المضحك أن النظافة الزائدة عن الحد قد دمرت

صحة الغربيين .. القولون الخالى من البكتريا يصاب بالسرطان بسهولة تامة .. ولهذا يتناول الغربيون أقراص بكتريا لإضفاء بعض القذارة على جهازهم الهضمى، بينما قولون من اعتاد أن يفطر فولاً وطعمية من عند (زيزو) لا يصاب بالسرطان بسهولة .. إن الأمر يشبه أن تبقى ابنك فى فوقعة بعيدًا عن المجتمع فيصدم عندما يسمع أول عبارة سباب ..

« برغم اعتمادى على المناعة الطبيعية يجب ألا أنسى الوقاية .. سأتناول قرص الوقاية من الملاريا الآن وأضع العلامة المعتادة .. »

هنا قلب (سيميلكوف) المفكرة من جديد ليرى العلامات التى تقول :

12 13 14 15 16 17 18 19 ..

1 1 1 1 1 1 1 1

هذا غريب !

هذه العلامات لا تدل على مرور الأيام .. بل هى تدل على كل يوم يتناول فيه العقار الواقى من الملاريا .. كلما تناول العقار وضع علامة 1 ..

كان 19 هو اليوم الأخير من التعاطى .. إنه اليوم الذى أصيب بالغيبوبة فى ليلته ..

هذا يعنى أنه تناول العقار بانتظام وحتى اليوم الأخير ! !!

* * *

قال (سيمياكوف) للمدير :

ـ « لا أعرف ما أقول يا سيدى .. لكن د . (عبد العظيم) كان يتعاطى العقار بانتظام تام .. »

رفع المدير حاجبيه الكثين فى دهشة .. ثم وضع أوراقه جانبًا وقال :

ـ « لا تقل إنه لا يعانى مشاكل .. »

ـ « يعانى مشاكل .. الكثير منها ، لكن هذا لم يكن كافيًا لجعله يتخلى عن فكرة الحياة .. إنه مولع بالحياة .. كل واحد يعرف هذا .. »

ـ « أنا لا أتحدث عن انتحار .. »

ـ « وأنا كذلك .. الفتى كان يضع علامة على كل يوم يتعاطى فيه عقار (دوكسيسيكلين) .. هذا موجود فى مذكراته .. لقد كان يخشى المرض كأى واحد آخر .. »

فكر المدير بعض الوقت وراح يتنفس بصوت ثقيل .. ثم قال :

ـ « سوف تكون هذه ورقة علمية بالغة الإثارة .. عقار (الدوكسيكسيلين) لم يعد يعمل فى جنوب أفريقيا .. الملاريا وجدت طريق هروب آخر .. ومعنى هذا أنكم الأجانب فى خطر داهم .. »

ـ « لا يمكن أن نقيس على حالة واحدة .. »

فكر المدير بعض الوقت ثم التفت إلى (أبلتون) متسائلاً :

ـ « كيف هو الآن ؟ »

ـ « كادوا يفقدونه أمس .. تورم فى المخ كاد يؤدى لفتق فى جذع المخ .. لكنهم استطاعوا السيطرة عليه .. أعتقد أن وعيه يتحسن .. القاعدة فى الملاريا المخية هى أن يفيق المريض بالعلاج .. ربما يترك المرض أثرًا عصبيًا ما لكن المريض لا يموت إذا تلقى العلاج .. »

قال المدير ضاحكًا من وراء شاربه الأبيض الكث :

ـ « لا شىء يحدث بسهولة مع الأطباء ! »

هذه قاعدة معروفة فى كل الأوساط الطبية .. لابد من أن يكون مرض الطبيب غريبًا محيرًا .. عندما يصاب المريض العادى بالتهاب اللوزتين فإن كبسولتين من المضاد الحيوى

تتهاوى القصة ، بينما يصاب الطبيب بشبه اختناق ويحتاج إلى الحقن بمضاد حيوى باهظ الثمن .. عندما تتألم معدة المريض العادى فهو يعانى سوء هضم .. بينما الطبيب يعانى قرحة معدية مضاعفة ..

قال (أبلتون) للروسى :

ـ « اسمع .. أريد أن تعيد تفتيش غرفته اليوم .. »

قال الروسى محتجًا :

ـ « لقد فتشتها كأننى رجل شرطة يبحث عن بصمات .. »

ـ « ما زلت أرغب فى أن .. ولكن .. سآتى معك .. »

قالها وهو ينهض وينظر إلى المدير فى شبه استئذان فوافقه هذا على الفور ..

★ ★ ★

من جديد يعيد الروسى تأمل الغرفة .. يتجه ليزيح ستارًا فيدخل الضوء .. ذات المعالم السابقة التى حفظها ..

يفتح (أبلتون) الخزانة ويتفحص كل شىء .. يفتح الكومود .. يقلب الأوراق ..

هذه الغرفة لها طابع خاص بها وشخصية .. كأنها حية بشكل ما .. يصعب تخيل أن من كان ينام في هذا الفراش يرقد الآن في العناية المركزة ..

اتجه (أبلتون) إلى الثلاجة الصغيرة التي يبلغ ارتفاعها ارتفاع طفل في الخامسة ، وسأل الروسي وهو يفتح بابها :

ـ « هل فتشت هنا ؟ »

ـ « بالطبع لا .. الثلاجات لا تحوى إجابات عن أسباب الملاريا المخية .. »

قال (أبلتون) وهو يركع ويتفحص الأرفف :

ـ « أنت أسوأ رجل شرطة ممكن .. كل الناس تخفى أسرارها في الثلاجة .. يبدو أن من اخترعها أولاً صممها على شكل خزانة محكمة ثم خطر له أن يضيف لها التبريد ! »

ثم أخرج زجاجة لبن شُرب نصفها ..

دقق النظر .. ثم مد يده إلى رف آخر فأخرج زجاجتين من أحد أدوية الحموضة ..

ـ « صاحبك كان يعاني آلامًا في المعدة أو قرحة .. »

ـ « هذا واضح .. لا علاقة لهذا بالملاريا .. ليس ألم المعدة من أعراضها باستثناء أنواع فريدة مثل تلك التى تشبه الكوليرا .. و ... »

قال (أبلتون) وهو يرفع زجاجة الدواء فى الضوء :

ـ « واحدة فارغة وواحدة نصف مليئة .. لبن وأدوية حموضة .. »

ثم ابتسم وهو يقف وقد بدت عليه ملامح (هولمز) فى الفصل الأخير من أية قصة له :

ـ « الطريقة المثلى لمنع امتصاص مشتقات الـ (تتراسيكلين) ! لقد كان صاحبك يتعاطى (الدوكسيسكلين) بانتظام ، لكنه كان يتبع ذلك بجرعة لبن محترمة .. ثم الكثير جدًا من دواء الحموضة .. هذا كان يؤدى لعدم امتصاص الدواء على الإطلاق وكأنه لم يبتلعه أصلاً ! »

شهق (سيمياكوف) غير مصدق .. وقال :

ـ « لكنها حقيقة معروفة لكل طالب طب .. مستحيل أنه كان يجهلها .. »

قال (أبلتون) :

ـ « هكذا يتصرف الأطبـاء بإهمـال غريب عندما يمرضون .. يخرقون كل القواعد التى يحرصون على تحذير المرضى منها .. كأنهم أكبر من هذه التعليمات البسيطة .. يمكـن الآن معرفـة ما حدث .. لقد جاء إلى جنوب أفريقيا من الكاميرون ، من ثم بدأ يتعاطى عقار (دوكسيسكلين) بانتظام .. فـى ذات الوقت أصيب بقرحة معدية فبدأ يتعـاطى اللبن وأدويـة الحمض دون أن يترك فترة بين اللبن ودواء الملاريا .. هكذا ظـل هنـا عدة أشهر وهو يحسب أنه محمى من الملاريا ، بينما هو فى الحقيقة معرض لها بشراسة .. أعتقد أنه قام برحلة ما للأدغال .. »

قال (سيمياكوف) :

ـ « زار محمية (كروجر) .. كمـا زار إحدى قرى (الخوى خوى) . »

ـ « هكذا .. لقد تلقى لدغات البعوض بكثافة فـى هـاتين المرتين .. ولـم يكن منيعًا علـى الإطـلاق .. هـذه هـى القصـة المعتـادة مـع الملاريا المخية .. »

ثم أغلق الخزانة بحركة درامية وهو يهتف :

ـ « القضية مغلقة ! »

* * *

9ـ أنـــا ..

أعتقد أن أمرى قد انتهى ..

إن العقار قد تغلغل فى كل أنسجتى . إخوتى كذلك يلفظون أنفاسهم الأخيرة ..

لقد نجا هذا الفتى .. وهلكنا نحن ..

هذا هو ناموس الحياة على كل حال .. فقط نحن نمارس نوعًا خاصًا من الخلود عن طريق أجيال أخرى هنا وهناك تهاجم مرضى آخرين ..

سوف يبتكر العلماء عقارًا آخر ، وسوف نتعلم كيف نقاومه ..

سيظل داء الملاريا قويًا كاسحًا ولن يهزم أبدًا ..

فقط يوم يعرف العلماء كيف يصنعون لقاحًا واقيًا ضد المرض .. لقاحًا يحقن به الأطفال فى المناطق الموبوءة ..

فى هذا اليوم فقط سوف تعرف البشرية أنها انتصرت ...

يومها ستكون قد قضت على الملاريا كما قضت على الجدرى وشلل الأطفال (تقريبًا) ..

لقد كانت جلستى معكم ممتعة .. ربما نلتقى مرة أخرى .. ليس أنا بل سيكون مضيفكم واحدًا آخر من سلالتى ..

حتى ذلك الحين تذكروا أن تكافحوا البعوض وأن تأخذوا الأدوية الواقية لو تواجدتم فى بلد موبوء ..

تذكروا أننى ..

يبدو أننى لن أجد الوقت الكافى لاستكمال كلامى ..

تذكروا أننى ..

أننى ..

* * *

9ـ هــو..

يبلغ نهاية النفق وقدماه تخرجان من الغبار الناعم ..

(برنادت) هناك عند الطرف الآخر تضحك له ..

لقد أنهيت الرحلة ..

ـ « هل مت ؟ »

ـ « لا .. هل ترى ما ينتظرك خلف فتحة النفق ؟ هذا هو نور الصباح .. أنت فى عالم الأحياء من جديد .. »

ثم تضحك وتكوم أنفها على شكل (التشنيكة) المحببة الشهيرة ، وتقول :

ـ « لم أساعدك كثيرًا .. أنا آسفة .. لا يجوز لى اختراق نفق الغيبوبة .. »

ـ « كنت معى وهذا كاف ... أحيانًا يساعدنا الآخرون بأن يكونوا فى حياتنا فحسب .. »

تشير للضوء خارج النفق ، وتقول :

ـ « سوف يؤلم عينيك .. لكنك ستعتاد بعد قليل .. هيا .. ألقاك في الخارج .. لا تضعف .. تشجع .. »

يخطو الخطوة الأولى ..

بالفعل الضوء مؤلم بحق ..

★ ★ ★

مال (سيمياكوف) على الفراش ، وقال وهو يمسك بيده :

ـ « أنا آسف .. لقد اخترقت حياتك الخاصة بشكل غير مسبوق .. كانت تلك أوامر عليا .. »

ثم وضع طبق الحساء الفارغ جانبًا .. وجفف فم (علاء) ..

لقد أفاق (علاء) منذ يومين .. وهذه هي وجبته الأولى التي سمحوا بها ..

بلل (علاء) شفتيه الجافتين ، وتحسس أنفه الذي أدماه أنبوب (رايل) ، وقال :

ـ « من الحماقة أن تعتقدوا أنني أفكر في شيء كهذا .. آخر إنسان يمكن أن ينتحر أو يتخلى عن الحياة هو أنا .. عندما أفكر في أن الله خلق لنا هذه الأجهزة المعقدة .. إنزيمات وجزيئات

للتصاق ومضلات تجلط .. شرايين تنقبض وتنبسط .. كلية تحتجز الصوديوم والزلال أو تطلقهما .. قلب لا يكفّ عن النبض .. هرمونات وبوابات خفية فى الخلايا لا تفتح إلا بالإنسولين كى يدخل الجلوكوز .. جينات انتحار وجينات خلود .. وجينات تولد السرطان وجينات تمنعها من ذلك .. هرمون غدة درقية مسئول عن شعورنا بالنشاط ، وهرمونات تجعلك تكتشف أن زميلة دراستك جميلة فعلاً .. جهاز توازن فى الأذن الوسطى يخبرك ما إذا كنت تترنح أم تميل أم ترقد .. عندما أفكر فى هذا التعقيد المذهل رائع الجمال ، ثم أتخيل أن أحمق ما يأتى لينسف كل هذا قاطعًا شرايين يده أو بالعًا أقراص منوم (لأن حبيبتى لم تعد تحبنى) .. أشعر بالغثيان ... لم أر عملاً أحقر من هذا فى حياتى .. قلت لى إنك غير متدين ؟ »

– « أسرتى فى موسكو كانت مسيحية ثم تخلت عن الدين فى عهد ستالين .. »

– « لكنك تدرك على الأقل مدى حماقة هذا العمل .. أنا متمسك بهذا التكوين البيولوجى الرائع وسأحافظ عليه ما استطعت .. لن أترك هذه الأرض إلا مرغمًا ولأن ساعتى حانت .. »

ثم تذكر شيئًا ، فأضاف :

- « لا مشكلة فى اختراق حياتى الخاصة .. لست من هؤلاء الذين يؤمنون أن أسرارهم خطيرة لمجرد أنها أسرارهم .. »

هنا قال الروسى باسمًا فى خبث :

- « هذا يريحنى .. لن تكون هناك كلمة واحدة عن (مادلين كوفييه) .. »

- « (مادلين) ؟ »

- « ولا (أونوابا) ! »

- « تعرف أونوابا ؟ »

- « ولا قصتك المؤسفة مع (دانييل توبزاك) ! »

نظر له (علاء) فى شك ، وقال :

- « أنت تقرأ العربية ؟ »

- « وجدت من يقرؤها ! »

بدأ (علاء) يتحرك فى الفراش فى توتر واضح .. يبدو أن الهضم قد صار صعبًا .. فى النهاية قال للروسى :

- « ليست لدى أسرار مهمة .. لكنى بالتأكيد أفضل أن أحتفظ بتفاهاتى هذه ! »

ـ « اطمئن ! اعتبر أننى نسيت كل شىء »

★ ★ ★

كان (نظير) النادل الباكستانى يثرثر مع (إقبال) زميله فى الكافتيريا .. يحكى له قصصًا مسلية قرأها فى مذكرات ذلك الطبيب المصرى ..

أتمنى لو عرفت ما قاله بالضبط وما أضافه خياله إلى الأحداث من أشياء مثيرة لا وجود لها ، لكن هذه أشياء خارج نطاق معرفتنا هنا فى (سافارى) .

د .علاء عبد العظيم
من قرب ديربان

(تمت بحمد الله)



سافارى

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكى يظل حيا ولكى يظل طبيبا

هواء فاسد

لم لا ؟.. إننى لست كائنا بسيطا أبله .. أنا أجلب السقم لنحو ثلاثمائة مليون شخص ، وأقتل حوالى مليونى شخص كل عام .. أى أننى أفتك بإنسان كل نصف دقيقة !..

أنا ببساطة تاريخ الوجود .. عبقرية الخلق التى تمثلت فى كائن دقيق لكنه قادر على أن يقهر الجيوش .. قادر على أن يغير التاريخ .. قادر على أن يجعل العلماء يسهرون فى صيف الهند الحار يحدقون فى عدسة المجهر حتى يصيبهم الحول ، كما سنعرف حالا عن (روس) (مانسون) و (جراسى) وسواهم ..

د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم

رجل الرمال



المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع بالقاهرة والإسكندرية